تقديم: أ. د / أحمد محمد الدغشي
أستاذ أصول التربية جامعة صنعاء.

تقديم: د. خالد عبد الله الحوري.

د. يحيى أحمد المرهبي

/Yahya.Ahmed.Almerhbi

Email: almerhbi2010@gamil.com

د. يحيى أحمد المرهبي

الجمهورية اليمنية.

العاصمة صنعاء - محافظة عمران.

الطبعة الأولى

1441 هـ - 2019م.

الإهداء

إلى أطهر نفس وأزكاها ... إلى صاحب القلب والعقل الذي أرسله الله للناس كافة فكان رحمة وهدى للعالمين صلوات ربي وسلامه عليه.

إلى والديَّ الكريمين عليهما رحمة الله من رباني صغيرا برا بهما واستنزالا لرحمة الله عليهما.

إلى كل من كانت له يدٌ بيضاء في تعليمي وتربيتي وتعريفي بنفسي شكرا وتقديرا ووفاء.

إلى قارئ هذه الحروف رسالة تواصل وعربون صداقة.

إلى كل هؤلاء وإلى غيرهم أهدي هذا العمل المتواضع، سائلا الله أن ينفع به وأن يجعله في ميزان الحسنات.

استهلال

ستة أبيات من الشعر كانت هدية الأخ العزيز/ محمد السلمي المعيد بكلية التربية والألسن عمران عندما أطلعته على مقدمتي لهذا الكتاب، فباح شعرا بهذه الأبيات.

من القرآنِ يقتبسُ المعاني * وينسجُ منه عنقودَ البيانِ

ويقطِفُ منه أزهارَ التجلّي * فيغشى العطرُ أروقة الزمانِ

هو القرآنُ نورٌ مستبينٌ * ينيرُ سناه داجيةَ المكانِ

يُغلِّف بالضياءِ ضبابَ روحي * فيهمي ما يقولُ على لساني

لقد أحسنتَ يا دكتور يحيى * ونِلتَ الوصلَ من غِيدٍ حسانِ

جُمانٌ لو عُرِضنَ على خليٍّ * لتيَّمَ قلبه وهجَ الجمانِ

المحتويات

عنوان الموضوع	الصفحة
الإهداء	3
استهلال	4
المحتويات	5
مقدمة أ.د/ أحمد محمد الدغشي	7
تقديم د. خالد عبد الله الحوري	12
مقدمة المؤلف	14
(1) رمضان 1440: نفسٌ تشتهي ... وعقلٌ يقود	21
(2) رمضان 1440: تهذيب النفس ... عِلْمٌ ومهارة وسياسةٌ وصبر	23
(3) رمضان 1440: اعرف نفسك ... كي تستطيع قيادتها	25
(4) رمضان 1440: المرونة النفسية ... جهادٌ مستمر	27
(5) رمضان 1440: الرضا عن النفس سَبَبٌ لخسارتها	29
(6) رمضان 1440: يحافظ على الراحلة ويواصل السير	32
(7) رمضان 1440: هل يأتي الشيطان للإنسان إلا من الباب الذي فتحته نفسُه	34
(8) رمضان 1440: النفس عندما تحول الدنيا من وسيلة إلى غاية	36
(9) رمضان 1440: عوامل بناء النفس	38
(10) رمضان 1440: النفس بين الفردية والجماعية	40
(11) رمضان 1440: النفس في خلواتها	42

(12) رمضان 1440: النفس بين الإيجابية والسلبية	44
(13) رمضان 1440: البركة ليست أرقامًا وأرصدة ... بل طمأنينة قلب وراحة نفس	46
(14) رمضان: الشهوات وقود النفس	48
(15) رمضان 1440: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴿١١﴾﴾	50
(16) رمضان 1440: لماذا الحديث عن النفس الإنسانية؟	52
(17) رمضان 1440: إنما الغنى غنى النفس	55
(18) رمضان 1440: الوقاية خير من العلاج	57
(19) رمضان 1440: (**حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبوا**)	59
(20) رمضان 1440: التوبة ... تصحيح مسار النفس من ذنوبها	61
(21) رمضان 1440: الصبر ... صمام أمان لثبات النفس	64
(22) رمضان 1440: الغضب ... يُضعِف النفس ويُشوِّش العقل	67
(23) رمضان 1440: النفس ... بين الخوف والرجاء	69
(24) رمضان 1440: النفس ... عندما ترجو الثواب وتخاف العقاب	72
(25) رمضان 1440: التوكل ... أسبابٌ تُبْذَل وثقة بالله تتأصَّل	75
(26) رمضان 1440: القلق ... داء النفس والطمأنينة دواؤها	79
(27) رمضان 1440: الهوى ... يقود النفس إلى مهاوي الردى	82
(28) رمضان 1440: النفس بين موازين الدنيا وموازين الآخرة (1-2)	85
(29) رمضان 1440: النفس بين موازين الدنيا وموازين الآخرة (2-2)	88
(30) ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾	91
نبذة تعريفية عن المؤلف	95

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ ﴾

تأليف: الدكتور يحيى أحمد المرهبي-أستاذ أصول التربية المساعد – كلية التربية – جامعة عمران

تقديم: أ.د أحمد محمد الدغشي – أستاذ أصول التربية-كلية التربية-جامعة صنعاء

﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ ﴾ {الشمس: ٩ }، كتيّب ماتع لزميلنا العزيز الدكتور يحيى المرهبي، سلّم الله يراعه، وزاده من معين علمه، وفيض عطائه، حكمة وخُلُقاً.

يأبى العزيز الدكتور يحيى إلا أن يشرّفني بكتابة هذه الكلمات في مستهل الكتاب، ولم أقابل ذلك سوى بالترحيب، إذ لا مناص من ذلك هنا، لسبب جوهري سآتي على ذكره لاحقاً في ثنايا هذه الكلمات.

يُعدّ هذا الكتيب هو الثاني للدكتور يحيى المرهبي بعد صدور الأول قبله في العام الذي سبقه بعنوان (**على بصيرة: تأملات في الدِّين والحياة**)، وكان بداية موفقة صحبناها طيلة الشهر الكريم ـ حينذاك ـ كما كتابه الحالي. وكانت دلالة الأول تشير إلى أن لصاحبه قلماً مميزاً، ومستقبلاً واعداً في حقل الفكر التربوي بوجه أخص. والواقع أن التزكية التي يعنيها المؤلّف في رسالته الجديدة ليست بالمعنى التهذيبي الخاص كما قد يتبادر إلى ذهن القارئ للوهلة الأولى، بل بأوسع المعاني، من حيث **تزكية الشخصية المسلمة من الجوانب العقلية والنفسية والروحية والجسمية والفردية والاجتماعية...إلخ.**

قلت آنفاً: لا مناص من تلبية طلب كتابة تقديم الكتيب للعزيز الدكتور يحيى المرهبي، ووعدت ببيان السبب في ذلك، وحاصله أنه ولو كان ثمّة مفخرة حقيقية للعبد الفقير بين كل من كلّف بالإشراف عليهم -خاصة حين يكون الإشراف مع أستاذ بحجم أستاذ الجميع أ.د عبد الغني قاسم حفظه الله وعافاه-لكان يحيى المرهبي من أعلاهم كفاءة وفاعلية

وحضوراً علمياً. لا أقول ذلك عن مرحلة الماجستير التي قصدتها بالإشراف، فذلك أمر نسبي وربما اشترك فيه عديدون؛ ولكن العبرة عندي بالمخرج النهائي، بعد التأهيل بالدكتوراه، وذلك ماعنيته تماماً، لكن لا شك أن مرحلة الإشراف في الماجستير كانت - بالنسبة لي-مرحلة اكتشاف شخصية باحث تربوي علمي منهجي اتسم بحب القراءة إلى حدّ غير معهود في باحثينا، بل في وسطنا نحن الأساتذة، على ذلك النحو، وهذا واحد من أسرار مهارته في الجمع بين الكتابة العلمية والسلاسة في الأسلوب، وهو ما ينقص أكثرنا حقيقة. وهي رسالة ضمنية لكل من رام التميّز في الكتابة، إذ سبيل ذلك مزيد من القراءة ومتابعتها، ليس في مجال التخصص الضيّق فحسب-على أهمية ذلك وأولويته-بل على مستوى الثقافة العامة كلّها، مع الأخذ في الحسبان الأَولى فالأَولى.

سعى الدكتور يحيى نحو التكامل والجمع بين هذه السمات المشار إليها منذ ذلك الحين، وربما قبله، وقد تجلّى ذلك بوضوح بعد حصوله على الدكتوراه من جمهورية الهند، في ظروف غاية في المعاناة الاستثنائية، إذ وُعِد بمنحة من جامعته، ولكنه أكمل أطروحته، وعاد إلى بلاده، ولمَّا تصل منحته بعد! بل وقد انقطع راتبه الرمزي كموفد منذ زمن، ولا راتب له حتى اليوم، مثله في هذا مثل كل زملائه وموظفي الدولة بصورة عامة، رغم كونه عضو هيئة تدريس منذ ما قبل إيفاده، ورغم أنه غدا أستاذاً مساعدا منذ سنوات! وإذا كان القيام بمهمة التدريس الجامعي في البلاد في وضع غير مسبوق في استثنائيته على الإطلاق، في العهد الجمهوري -على الأقل وهو الذي تجاوز نصف قرن-يعد أمراً لافتاً، وجهداً يستحق الثناء؛ فإن الدكتور يحيى لم يقف عند ذلك المستوى، بل نشط نشاطاً لافتاً ونوعياً في مجال البحث العلمي وخدمة المجتمع-وهما الوظيفتان الأساس للأستاذ الجامعي إلى جانب التدريس-كتابة وحضوراً مميزاً على مختلف وسائل التواصل الاجتماعي. ومع أن هذه الوسائل تعج بالكتابات المختلفة إلى حدّ التُّخمة من كل المستويات

-بما فيها كتابات الأكاديميين-فإن كل أو معظم من يتابع كتابات الدكتور يحيى المرهبي يشهد لها بالنوعية والتميّز والأصالة العلمية الأكاديمية والتربوية مع المهارة البالغة، لتتحول إلى خطاب جماهيري عام، مع أنها جاءت في الأساس موجهة للوسط التربوي والعلمي، وتلك مزيّة جديرة بالتقدير والاحتفاء في كتابات صاحب الكتيب وفقه الله.

الحق أن هذا النوع من الكتابات التربوية التي تمتلك مهارة الجمع بين نَفَس التربوي وروح المفكّر، وأصالة الباحث، وانتمائه العضوي إلى المجتمع، وولائه الصادق لجيله؛ يُعدّ امتداداً مباركاً لكتابات الروّاد في هذا المجال من أمثال شيخ التربويين العرب الأستاذ الدكتور الراحل حامد عمّار-رحمه الله-وتلميذه النجيب الذي غدا خليفة لشيخه بلا منازع: الأستاذ الدكتور سعيد إسماعيل علي – حفظه الله-. وبالمناسبة فإن الدكتور سعيد كان المناقش الخارجي لرسالة العزيز يحيى المرهبي في الماجستير، وكان ذلك شرفاً له ولنا -نحن المشرِفَين-ولقسم أصول التربية بكلية التربية، كما هو شرف لجامعة صنعاء.

وفي هذا السياق-أعني سياق الكتابات التربوية والفكرية والثقافية العامة-لا يفوتني أن أسجّل كلمة وردت على لسان أستاذنا الكبير سعيد إسماعيل علي – أطال الله في عمره- في الجزء الأول من برنامج الطبعة الأولى-بقناة دريم (المصرية)، حيث قال في سياق حديثه عن ما يصفه بـ"**العدل التربوي**" ما فحواه: **ينظر البعض إليّ على أنني مشتت، وذلك صحيح، لأن طبيعة المهنة تقتضي ذلك، كتاباتي في مجال السياسة والثقافة ربما أضعاف ما أكتبه في مجال التعليم، لكن ليس معنى ذلك أنني أبتعد عن التعليم، بل هذا هو التعليم الحقيقي!** والواقع أن عدداً من كتب الدكتور حامد عمّار أو سعيد إسماعيل هي في الأصل مقالات كتباها في مختلف الصحف والمجلات المصرية، ولكن روحها أهلتها لتدوّن في كتب موثّقة متداولة. وبعد توافر وسائل التواصل الاجتماعي صار للدكتور

سعيد مقالات متواصلة في صفحته على الفيس بوك، وصار له قناة خاصة باسمه، وبالتأكيد صار جزء من ذلك كتباً منشورة.

من هنا أعجب كثيراً لمن يستكثر على التربويين ـ ولاسيما المنتسبون منهم إلى حقل أصول التربية وفلسفتها والفكر التربوي-أن ينشغلوا بالكتابات العامة، حتى لو كانت تتسم بالأصالة التربوية والفكرية والاجتماعية والثقافية والسياسية المرتبطة بهموم المجتمع وقضاياه ومعاناته وتحدّياته، وأغرب من ذلك أن يتخيّل بعضهم أن هذا منحىً يتنافى مع رسالة الأستاذ الجامعي الأكاديمية! والحق أنه لا يتعارض على الإطلاق، بل ذلك هو **الركن الثالث من أركان وظيفة الأستاذ الجامعي، ألا وهي خدمة المجتمع**، ليس بالبحث العلمي المحكّم وحده، بل بالأنشطة الاجتماعية المختلفة ومنها الكتابات العامة، ولكنها المقيّدة أيضاً بأخلاق الباحث ومنطق الأستاذ الجامعي، من حيث النوعية والأصالة والأسلوب والتوثيق، إذا لزم الأمر. وفي حالة واحدة فقط يصبح هذا المسلك متعارضاً، أي إذا كان ذلك على حساب الوظيفتين الأخريين: **التدريس والبحث العلمي**، بمعناه العلمي الخاص، أي ذلك الذي يتناول قضية علمية في إطار التخصص، وتنشر غالباً في مجلة علمية محكّمة. **أما ابتعاد الأستاذ الجامعي عن هموم مجتمعه والتحدّيات الحضارية تجاه أمته بدعوى الأكاديمية والتخصص وعدم العلاقة؛ فلست أرى ذلك سوى انسحاب سلبي، إن لم يكن ـ لدى البعض-ضعفاً ماحقاً في شخصية الأستاذ الجامعي، يداريه بمثل ذلك التبرير!**

في الأخير أعود فأضرع إلى الله ـ جلّ في علاه-أن يوفّق كاتبنا الجسور، وينفعنا بما يكتب، ويمنحه الصحة لتدوم همته، ويشكّل مع زملائه النجباء وطلبته المتميزين اتجاهاً علمياً وتربوياً وثقافياً أصيلاً مؤثراً في مسار المجتمع وتنميته ونهضته.

أ.د أحمد محمد الدغشي – أستاذ أصول التربية-كلية التربية-جامعة صنعاء

27 من ذي الحجة 1440هـ الموافق 28أغسطس/آب 2019م

رؤية عن طبيعة النفس البشرية

تقديم د. خالد عبد الله الحوري دكتوراه في النحو

اللهم ارزقنا مجالسةَ الذاكرين، ومجالسةَ أهل العلم الطيبين، واجعلنا في معيَّةِ القوم الذين لا يشقى جليسهم ..

اللهم أرنا الوجهَ الذي ترضى، وخُذْ بنواصينا فلا تَصْرِف وجوهَنا عنه، واصرف عنا لَغْوَ هذه الدنيا ولُغُوبَها، واجعل آخرَ أيامنا كفارةً لأولها ..

اللهم ارزقنا الفهم، وأعِنَّا على أنفسنا، واجعل لنا من نورك نورًا في حياتنا وعند مماتنا، وفي قبورنا، ويوم نلقاك .. وبعد:

فإن النفس البشرية شديدة التعقيد، واستخلاص ما فيها من نوازع الحب والحق والخير، واتقاءُ ما تنطوي عليه من طبائع التحيزوالجحود والإجحاف والتمرد تتطلب أن نتفهم الطبيعة الإنسانية، وأن نسعى قدر الاستطاعة لاستنفار نوازع الخير، وإخماد نوازع الشر.

فالأنانية، والكبر، والغرور، والغضب، والحقد، والغيبة، والنميمة، والجهل، طبائع بشرية راسخة ومستشرية .. ومقاومة هذه الآفات النفسية تكون بالحِلْم، والتفكر، والرَّوِيَّة، وتذكُّر العواقب، وإيثار الفضيلة، وإدراك أن هذه الطبائع السيئة قائمة في كلِّ إنسان، والتغلب عليها لا يكون بتجاهلها، وإنما يكون بالاعتراف بها، والإصرار على مجاهدتها، ولا يُعاب الإنسان على وجودها فيه، وإنما يُعاب على عجزه عن ضبطها وتنظيمها.

ومن هنا يعد هذا الكتاب خلاصةً فلسفيةً علمية عن النفس الإنسانية، وهو أشبه ما يكون بخواطر يومية، فيها حِكَم ووصايا، كلٌّ منها مستقلة عن الأخرى، وقد دأب الكاتب - وهو رجلٌ مثقفٌ واعٍ - على إفراغ خلاصة تجاربه ودراساته وتأملاته في كتاب يحمل عنوانًا قرآنيًّا، فهو ثمرة دروسه التربوية خلال شهر رمضان الفضيل

كله .

وبذكائه الفذ النادر رأيناه يجعلُ المعرفة الواعية المسبقة بتناقضات النفس واضطراباتها شرطًا أوليًّا لقيادتها قيادةً راشدة، وهذا الربط الوثيق بين معرفة النفس وقيادتها مما يكاد الكاتب أن ينفرد به، باعتبار إحداهما نتيجةً للأخرى، كما يجعلُ الإيمان ذا تأثيرٍ عميقٍ مُلازمٍ لكلِّ اتزانٍ وتقويم، وهو في هذا لا يكتفي بأن يجعل المعرفة بالنفس شرطًا لمجرد قيادتها، بل يجعل مقدار ما يحققه الإنسان من ارتقاءٍ في قيادة النفس مرتبطًا بمقدار ما يحققه من درجةٍ في المعرفة بهذه النفس، عمقًا واتساعًا.

إن الجهل بالنسبة لمن يدرك قيمة المعرفة غولٌ مرعب، ولذلك تتضاءل كلُّ ملذات الحياة أمام لذة المعرفة بخبايا النفس، فهي التي تمنح المغزى للحياة، وهي التي تَهَبُ الإنسان قيمته وجدوى وجوده، فالمعرفة رِيُّ العقل بعد ظَمَئِه، وأنسُ الفكر بعد وحشته، وطمأنينة الذهن بعد قلقه، ويقين الفؤاد بعد حيرته، كما أنها شِبَع النفس بعد جوعها، وغنى الوجدان بعد فاقته.

وفي إيجازٍ بارعٍ يُلخِّص لنا الكاتب ما انتهت إليه قراءاته عن طبيعة العقل وعلاقته بالنفس، فيرى ضرورة إيجاد نوع من التوازن بين تأثير كلٍّ منهما في السلوك الإنساني، مع الاحتفاظ للعقل بقدرٍ من سلطة الإدارة في إطار الثوابت الراسخة، فهدفه كان تأكيد الأهمية القصوى لتحقيق التوازن والتلاحم بين العقل والنفس، والبرهنة على دور العقل الريادي في إدارة الملكات كلها، وأيُّ فتور تتعرض له هذه العلاقة الوطيدة بينهما، وأيُّ اختلالٍ يعتري هذا التوازن الحساس الدقيق يسري أثره على كلِّ النشاط الإنساني، ومن هنا تتفاقم معضلات الإنسانية .

إن دراسات التحليل النفسي وأحداث الواقع كلها تشهد بأن النفس ذات نشاطٍ تلقائي عارم بحكم الميول الغريزية، وأن العقل قد يتحرك لتوجيه هذا النشاط التلقائي، وبذلك تسترشد النفس بالفهم والإدراك، وتستنير بأضواء العقل.

وما أعظم أن يكون الإنسان ملتزمًا ومتدينًا منذ بواكير شبابه! ذلك أن هذا الالتزام المبكر هو الدليل الأكيد على النضج العقلي المبكر، والذي ينبغي الاهتمام به هنا هو ترشيد هذا التدين وتوجيهه نحو الاعتدال، فالنفس بطبعها مندفعة، ومشبوبة العاطفة، وهي بحاجة إلى أن تستفيد ممن هم أكبر منها سنًّا، وأوسع منها تجربة؛ لتتجنب الإفراط والغلو والاندفاع غير الرشيد، فنسأل الله المزيد من رسوخ الإيمان وثبات اليقين، وأن نلتزم دائمًا بالاعتدال في كلِّ شأن من شؤون الحياة، وقد كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - أكثر الخلق إدراكًا لمخاطر الغلو، فحذَّر الأمة من الشَّطَط، ودعاها إلى أن تلتزم الاعتدال، وفي أحد المواقف أبدى غضبه عليه الصلاة والسلام من الإفراط فقال: هَلَكَ المتنطِّعون .. كررها ثلاثًا .. وقال عليه الصلاة والسلام: إن هذا الدين متين فأوغِلوا فيه برفق.

فالسلوك الإسلامي الرشيد هو السلوك الذي يلتزم بالاعتدال، ويتجنب الغلوَّ، ويبتعد عن الإفراط، ويخلو من التنطُّع، والمسلم يفترض فيه أن يكون قمةً في الوعي، وحُسنِ الخلق، وصِدْقِ القول، وصفاءِ القلب، ونقاءِ الظاهر والباطن، واسعَ الأفق، رَحْبَ التصور، مستنيرَ العقل، يصغي لآراء الآخرين، ويتحمل أخطاءهم، ويدرك أنه مثل غيره من الناس، ليس معصومًا عن الخطأ، ولا مبرأ من النقائص.

وثمَّةَ قضية أخرى مركزية لها أكبر الأثر على سلوك النفس وتصرفاتها، هي قضية الغضب الذي تنجم عنه كراهية دائمة، وتنافر مستمر، وتغيُّرٌ في المواقف، وانقلابٌ في الأحكام، ويكفي برهانًا على هشاشة الأساس الذي تقوم عليه هذه المواقف والأحكام أنه في حالة الغضب ينقلب الصواب في نظر أصحابه إلى خطأ، ويتحول الحق إلى باطل، ويكتسي الجميل بأبشع أمارات القبح.

ورغم فداحة الأضرار التي يجلبها الغضب فإنه ليس نادرًا في حياة النفس، بل هو من صميم تكوينها، ويصطبغ به دائمًا سلوكها، ولا هو أيضًا بطيء الاستجابة، وإنما هو جاهز دائمًا على سطح الشعور، يضطرم لأتفه الأسباب، ويشتعل لأقل الحوادث،

سوء فهم لموقف، أو سلوك عابر، أو تصرف عفوي، أو كلمة غير محسوبة، أو حادث فردي، أو خطأ في التفسير، قد يؤدي أيٌّ منها إلى إثارة الغضب فيحتد الخلاف، وقد يؤدي إلى تفكك أسرة أو قطيعة رحم، وقد تتسع الأضرار فتشمل مجتمعًا بأسره أو شعوبًا بأكملها أو العالم.

ومعلومٌ أن طوفان الغضب يُغرِق العقل، ويشل الإدراك، ويُعطِّل فاعلية البصيرة، ولا يترك فرصةً للحساب والمراجعة، فالإنسان في حالة الغضب ينسى حتى الحفاظ على حياته فيتهور في سلوكه بتصرفاتٍ تلحق الضرر به وبغيره، ففي غياب العقل بالغضب قد يرتكب الإنسان عملًا أهوج، وقد يحصل الانتقام، ومع الانتقام تتضاعف مساحات الغضب، ثم تمتد الحرائق في النفوس فلا تهدأ حتى تكون قد تسببت في فجائع مُروِّعة.

وللهوى على النفس سيطرة قوية وجارفة، فالنفس تنقاد بصورةٍ تلقائية لما تهواه، **وإيثار الحق على الهوى لا يتم بجهدٍ عفوي، بل يتطلب استنفارًا للطاقة الأخلاقية، ومَنْ يسعى لتهذيب النفس لا بُدَّ أن يكون شديد الحذر من أهوائه، ودائم المراقبة لميوله، يذود عن نفسه الجور، ويتسامى بها إلى الحق** .. والعداوات التي تنشأ بين الأفراد أو بين الأسر أو بين المجتمعات والشعوب والأمم ما هي إلا ثمرة أهواء بعضهم ببعض، وهي حصيلة آليات نفسية وأقنعة تبريرية، وأوثق العلاقات تكون مُعرَّضةً للانهيار لأوهي الأسباب.

إن ميزة الإنسان الجوهرية أنه مُكلَّف، وهذه الميزة الرفيعة والباهظة تجعله مسؤولًا عن ترقية نفسه، ولذلك لا يولد ناجزًا، فخروجه من الفجاجة إلى النضج، ومن الرعونة إلى الحكمة، ومن الأثرة إلى الإيثار، متوقفٌ على جهده الذاتي، وهذا يتطلب منه أن يجاهد ضد أهوائه وغرائزه، وانعتاق الفرد من عبودية الذات تحتاج إلى استنارةٍ في العقل، ومرونةٍ في الفكر، وسعةٍ في المعرفة، وتسامٍ في الأخلاق، فإن لم ينعتق الفرد من رق أهوائه، فإنه يصبح عاجزًا عن توجيه

حياته بالمستوى الذي يليق بالفرد المكلف.

وبعد ...

فإن السلوك الإسلامي المتسم بالوعي هو الذي يضمن لنا الحياة السعيدة في الدنيا والفوز بالحياة الآخرة، وإن الالتزام بالسلوك الإسلامي المستنير هو الذي يتيح للمسلمين أن يتخطوا حالة التخلف التي تعيشها أغلب الشعوب الإسلامية .. فما أشدَّ ظلمةَ الحياة حين يهتز الإيمان .. وما أبأسَ الوجودَ حين يضعفُ اليقين .. وما أثقلَ الزمنَ حين تنقطع الصلة بخالق الوجود ..

وصلِّ اللهم وسلِّم على محمدٍ خاتم الأنبياء، وعلى آله وأصحابه الأتقياء، وأزواجه النُّجَباء، صلاةً وسلامًا نسعدُ بهما يوم اللقاء في دار البقاء.

كتبه بيده الفانية:

أبو البراء د. خالد عبد الله الحوري دكتوراه في النحو

مكة المكرمة في: 22 من ذي الحجة 1440هـ

المقدمة

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، وأصلي وأسلم على محمد بن عبد الله الداعي إلى رضوانه، وعلى آل بيته وأصحابه وإخوانه ... وبعد:

فيطيب لي أن أضع بين أيديكم ثمرة تأملاتي واقتباساتي الرمضانية لعام (1440هـ) من هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم، والتي عَنْوَنتها بالآية القرآنية: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ ﴾ (الشمس: ٩)، بعد أن وفقني الله لنشر كتابي الأول الذي ضمَّ تأملاتي الرمضانية للعام 1439هـ ، مع مجموعة مقالات أخرى، وكان الكتاب بعنوان **(على بصيرة ... تأملات في الدين والحياة)**، راجيًا من الله - سبحانه وتعالى - أن يكون أهلًا لنيل إعجابكم ورضاكم، وأن تجدوا فيه الفائدة التي تُؤمِّلون الحصول عليها، سائلًا الله - جلَّ وعلا - أن يكون هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن يجعله في ميزان الحسنات.

وبدايةً يمكنني أن أضع هذا الكتاب تحت عنوان عام للتعرف على النفس البشرية، هذا العنوان هو **(فقه النفس الإنسانية)**، ومثل هذا العنوان يمكن أن يندرج تحته أيُّ حديثٍ عن النفس، حيث إن الحديث عن النفس هو بالفعل (فقه) يحتاج إلى مزيدِ عنايةٍ واهتمام من قبل علماء الأمة ومفكريها في أكثر من مجال، وفي أكثر من ميدان.

وستبقى الإشارات القرآنية والنبوية بالنسبة لنا كمسلمين منجمًا كثيرَ العطاء، يمكننا أن نغترف منه المزيد من الأبحاث والدراسات حول النفس البشرية، ويمكن أن تُقامَ بناءً على ذلك المراكز والجمعيات التربوية والنفسية التي تُعنَى بدراسة النفس الإنسانية، كما يمكن أن تتبنى الجامعات والمراكز البحثية ذلك، وتحتضنُ الكثيرَ من المؤتمرات والندوات وحلقات النقاش والحوارات البينية حول طبيعة النفس الإنسانية، وما هي طرق تزكيتها، وَفْقًا لأبحاثٍ متخصصة ودراساتٍ متعمقة، انطلقت من ثوابت الأمة (القرآن الكريم

والسنة النبوية)، واستفادت من نتائج الأبحاث والدراسات العلمية في الإطار الإسلامي أو خارج الإطار الإسلامي .

إن ما تشير إليه الآية القرآنية التالية: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ (فصلت: ٥٣)يُعَدُّ فتحًا لآفاقٍ رَحْبة أمام العقل الإنساني عمومًا والعقل الإسلامي خصوصًا؛ لكي يُعدِّل ميزان حواره مع الكون (الآفاق)، وحواره مع الإنسان (الأنفس)، فما أبدعه الإنسان واكتشفه في ميدان (الآفاق) فاق التصورات، وأدهش العقول، وخَلَبَ الألباب، وأحدث ثورةً، بل ثورات في عالم الاكتشافات والاختراعات غيَّرت وجه العالم وحوَّلته إلى قريةٍ صغيرة، وفي المقابل، فعلى الرُّغم من الجهود التي تُبذَل في ميدان الدراسات الإنسانية، إلا أنها مُقارنةً بما تمَّ في دراسة (الآفاق) تُعَدُّ دراسات متواضعة، ولا ترقى للمنافسة مع مثيلتها وقرينتها (الأنفس) وَفْقًا للآية القرآنية الكريمة .

إن هناك خطَّين كما تشير الآية القرآنية الآنفة الذكر، ولا بد أن يسيرا متوازيين، حتى تتوازن المعادلة، خط (آيات الآفاق)، وخط (آيات الأنفس)، ومما يؤسف له أن خطَّ (الآفاق) قد تجاوز خطَّ (الأنفس) بمراحل شاسعة، مما أوجد هُوَّةً واسعة، شقِيَت بها الإنسانية حتى اليوم، وعلى الرُّغم من وجود دراسات وأبحاث حول الإنسان في جميع أبعاده، إلا أن الإنسان لا زال (ذلك المجهول).

إن مستقبل الأمة رهينٌ بما يحدث من تغييرٍ وتنميةٍ للأجيال القادمة وبنائها النفسي والفكري، وهو حقل مفتوح أمام الأمة وأمام هذا الجيل، فبقدر ما يُوضَع في نفوس الناشئة من قوةٍ وطاقةٍ ورؤيةٍ وجهدٍ صحيح تأتي الثمرة ويقوى العود، وحديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي يقول فيه:(خِيَارُكم في الإسلام خِيَارُكم في الجاهلية إذا فَقِهُوا)، يعني أن **للتربية والتنشئة أسسًا نفسية هي سنن وقوانين إلهية، وأن طرق التعامل معها تحدد نوعية البناء النفسي للفرد، وتشكل معدنه وطاقاته**، كالشجاعة والجبن والأمانة والخيانة ... وما إلى ذلك. وهذه الطاقات يتم تسخيرها اجتماعيًّا في اتجاهٍ أو

آخر، بحسب الرؤية الكونية الاجتماعية لكلِّ أمة ومجتمع، وَفْقَ تعبير أ. د / عبد الحميد أبو سليمان.

وهذا هو ما جعل النبيَّ صلى الله عليه وسلم يدعو ربه بهذا الدعاء:(اللهم أعِزَّ الإسلام بأحبِّ الرجلين إليك، بعُمَرَ بن الخطاب، أو بعَمْرو بن هشام)؛ لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الرجلين من صفات القوة والشجاعة والعزم، وذلك أن التكوين والتربية النفسية والمعدن والجوهر النفسي القوي الجيد هو أمر يختلف عن المطالب والغايات. فالشجاعة والإقدام هي أمر غير الغاية التي يُوظِّف الفرد من أجلها تلك الشجاعة وذلك الإقدام، وكذلك الإخلاص والصدق والصبر وسوى ذلك من الصفات والمكونات النفسية، هي غير الغايات والأهداف التي يُوظِّف لها الأشخاص تلك الصفات والطاقات النفسية، ولذلك فالرجال أصحاب المعادن والتكوين النفسي القوي الجيد هم نفس الرجال ونفس المعادن والتكوين النفسي القوي الجيد سواء في الجاهلية أو في الإسلام لا يختلفون إلا في الغاية والمقصد.

وفي إشارةٍ قرآنيةٍ أخرى يوجهنا الله إلى النظر البصير والعميق والحكيم في أنفسنا، فيقول جلَّ ثناؤه: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١ ﴾ (الذاريات: ٢١)، وهذا التوجيه الرباني ذو دلالة واضحة، لا تخفى على ذي عينين، تؤكد أهمية النظر إلى أنفسنا نظراتٍ تتجاوز السطح والتسطيح؛ لتنفذ إلى العمق، **فالنفس الإنسانية شديدة التشابك والتداخل والتعقيد على نحوٍ يحتاج إلى مثل هذا التوجيه الرباني.**

إن لكلِّ نفسٍ في هذا الوجود (**بصمتها**) الخاصة، وإن اشتركت مع غيرها في الخطوط العامة، ومعركة الإنسان مع نفسه هي المعركة الأطول، بل هي المعركة التي يمكن أن نطلق عليها (**معركة النَّفَس الطويل**)، ولا يمكن للإنسان أن يُحرِزَ فيها نصرًا نهائيًّا، فهي معركة داخلية من الإنسان وفيه، والحرب كما يقولون سجال، نصرٌ وهزيمة، كرٌّ وفرٌّ، رِبْحٌ وخسارة، إقدامٌ وإحجام، تقدُّمٌ وتأخر ... وهكذا دون توقفٍ لا في الزمان ولا في المكان، حتى ينتقل الإنسان إلى جوار ربه.

ومع طول هذه المعركة، وهي معركة النَّفَس الطويل كما أسلفنا، يحتاج الإنسان إلى (فقه) للتعامل مع نفسه، فهي منه وإليه، وهو بها وإليها، ولا مناص من وَضْع سياسة يمكن من خلالها أن يقود الإنسان نفسه؛ ليصل بها إلى بر الأمان سالمةً غانمة، **وكم من أناسٍ أسقطتهم أنفسهم في منتصف الطريق، عندما تركوا لها الحبل على الغارب، وكم من أناسٍ حاولوا إسقاط أنفسهم، بحرمانها من حقها الفطري، فانقطعت بهم في منتصف الطريق** أيضًا، (**فلا راحلةً أبقوا، ولا أرضًا قطعوا**).

ويمكن أن يكون ما قمتُ به في هذا الكتاب خطوةً تتلوها خطوات، للتعرف على مجاهيل هذه النفس الإنسانية التي حيَّرت الكثيرين، ووقفوا عند شواطئها منهكين، يحسبون أنهم قد وصلوا في التعرف على النفس الإنسانية إلى لجة البحر، ولكنهم في الحقيقة لا زالوا على الشاطئ.

إن دراساتٍ بحثيةً متخصصةً ومتعددة المداخل هي ما يمكن أن يفتح لنا مغاليق هذه النفس، وليس مجرد خواطر، كما هو حاصل في هذا الكتاب، وإن كان فيه إشارات يمكن البناء عليها والانطلاق من خلالها، كما أن الاستفادة مما توصل إليه الآخر في هذا الإطار حول النفس الإنسانية، يمكن أن يخدم الدراسات البحثية في الإطار الإسلامي، إذا وجد من يستطيع التعامل مع هذا الإنتاج الإنساني في هذا المجال، من موقع المسؤولية والثقة بالنفس، لا من موقع الانبهار والتبعية، كما هو حاصل في مجالات البحث الكثيرة في العالمين العربي والإسلامي، حيث إن **الثقة بالنفس تتولد أساسًا من الاقتناع بأن السبيل المسلوك إنما هو سبيل الحق الذي لا شك فيه، فالإيمان بالحق وسداد الطريق يولِّد الدفع الذي ليس مثله دفع .**

وكما قلت في مقدمة كتابي الأول أنني مدين فيما أنا فيه (فكرًا وعقلًا وكتابةً)، بعد الله سبحانه وتعالى لكوكبةٍ من العلماء والمفكرين والمثقفين والتربويين الذين تربيَّتُ ونشأتُ على مائدة فكرهم وخلاصة تجاربهم، فإنني أكرر القول في هذا الكتاب، وأؤكد عليه، **فأنا بَعْضُ زرعهم الذي وضعوا بذوره، وأنا صغيرهم الذي ربَّوه على مائدة فكرهم فأصبح رجلًا، وأنا مَنِ التقط دُرَرَهم فشكَّلَ منها عقدًا فريدًا، وأنا مَنْ وضع**

إناءه الصغير ليستقبل فيه قطراتهم ومُزَنَ سحائبهم، فتجمعت لديه مياهٌ كثيرة، وسالت أوديةٌ بقَدَرها، وأنا الذي تتبعتُ إضاءاتهم وإشراقاتهم وقبساتهم، وصنعت منها ضوءًا ساطعًا يمثلهم جميعًا، أنار من خلال هذا الضوء دربه ودروب الآخرين، فأنا منهم وفيهم وبهم، ومن أنا بعد الله لولاهم، فلهم عظيم الأجر وجزيل الثواب.

في ختام هذه المقدمة، أقدم خالص شكري وتقديري لمن أسهم في تكوين فكرة هذه الوقفات والتأملات، كما أتقدم بالشكر الجزيل لجميع الإخوة والأصدقاء على صفحتي على الفيسبوك وسائر مواقع التواصل الاجتماعي الذين تفاعلوا مع هذه الوقفات، وكانت لهم ردودٌ إيجابية مُشجِّعة لإكمال هذه التأملات، ولا يفوتني أن أتقدم بأطيب الشكر وأجزله إلى أستاذي ومعلمي أ. د / أحمد محمد الدغشي، أستاذ أصول التربية بجامعة صنعاء، الذي شرفني بمقدمته لهذا الكتاب، وقد اغترفت من علمه وحكمته وأخلاقه العلمية وجهوده البحثية الشيء الكثير، والشكر موصولٌ للدكتور الفاضل / خالد عبدالله الحوري، الذي تكرم مشكورًا بمراجعة مُسَوَّدة هذا الكتاب لغويًّا، كما تكرم مشكورًا بإتحافنا بمقدمةٍ تُعبِّر عن عُلُوِّ كَعْبِهِ في لغة القرآن، كما أتقدم بالشكر الجزيل للأخ المهندس/ عامر عبده الحلحلي، الذي تكرم مشكورًا بتجميع هذه التأملات من صفحتي، وأعاد ترتيبها وتنسيقها وتصميم غلافها، فله جزيل الشكر والتقدير ، والشكر موصول للشاعر المبدع الواعد/ محمد السلمي المعيد بكلية التربية والألسن عمران الذي اتحفني بأبيات شعرية جعلتُ منها استهلالا لهذا الكتاب فله جزيل الشكر.

والشكر أولًا وأخيرًا لله الذي وفَّقَ وأعان، ثم لزوجتي الفاضلة وأولادي الأعزاء، الذين قدموا لي العون والمساعدة وهيَّئُوا لي الجو الملائم لكي أنجز ما أنجزت.

د. يحيى أحمد المرهبي

مدينة السلام ـ عمران

غرة محرم 1441هـ الموافق 31/ 8/ 2019م

(1) رمضان 1440هـ
نفسٌ تشتهي ... وعقلٌ يقود

النفس وعاءٌ للرغبات والشهوات، والعقل وعاءٌ للعلم والمعارف والتجارب، وكلُّ واحدٍ منهما له دوافعه، ومِنْ ثَمَّ غاياته. وهكذا تتنازع الإنسان عِدة مَلَكات، كلُّ واحدةٍ منها تريد أن تسيطر، وأن يكون لها زمام القيادة، ولكن هيهات، فلا يمكن أن تُسلِّم أية مَلَكة للأخرى بسهولة، ولذا لا بد من إيجاد نوعٍ من (التسوية) التي تحفظ لكلِّ ملَكةٍ توازنها، من غير إفراطٍ ولا تفريط، وهذا بدوره ينعكس على كيان الإنسان بكامله، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، وعندما نحتاج إلى إيجاد هذا التوازن بين هذه الملَكات فلا بُدَّ أن نعطي للعقل قدرًا من السلطة؛ لكي يدير هذه الملَكات في إطار الثوابت الراسخة.

ومعرفة النفس، كلُّ ما لها وما عليها، ومعرفة العقل، كلُّ ما له وما عليه، واجبٌ، حتى لا يظلم أحدهما الآخر، فلكلِّ واحدٍ منهما حقٌّ، والالتباس يجعل الإنسان لا يفرق بين الوسوسة والتفكير، وبين العلم والمعرفة والشهوة، وللنفس شهوات لم تُخلَق إلا لتُعطَى، وللعقل عِلْمٌ لم يُتحصَّل إلا ليقود، والنزاع بينهما في تحقيق كلِّ واحدٍ منهما لما يريد، يكون بمعرفة الحدود لكلٍّ منهما، حتى لا تقود النفسُ الإنسانَ إلى شهواتها باسم العقل، ولا يقود العقلُ الإنسانَ إلى حرمان النفس من كلِّ ما لها باسم الحصافة والحزم.

إن مِنَ الناس مَنْ يترك زمام القيادة بيد النفس التي تسعى إلى تحقيق شهواتها وملذاتها على حساب الملكات الأخرى، بل إنها - في كثيرٍ من الأحيان - تحوّل العقل إلى مُبرّرٍ لكلِّ أفعالها، وهناك من يترك زمام القيادة للعقل، فيقوم العقل بالتسلط على بقية الملكات، وكثيرًا ما يستبدُّ بالنفس فيمنعها كلَّ ملذاتها، سواءً المشروع منها أو غير المشروع، وفي هذا إخلالٌ بالتوازن وإجحافٌ بحق النفس، والإنسان مطالبٌ بالتوازن، فلا يُسلِّم زمام قيادة كيانه الإنساني للنفس، وبالمقابل لا يُسلِّم الزمام للعقل بشكلٍ مطلق، والوسطية في هذا الأمر لا يُوفَّق لها إلا كلُّ ذي بصرٍ نافذٍ وعقلٍ ناقد.

(2)رمضان 1440هـ
تهذيب النفس ... عِلْمٌ ومهارة وسياسةٌ وصبر

قد ينجح الإنسان في تهذيب غيره، ولكنه قد يصاب بخيبة أمل عندما يتعلق الأمر بنفسه هو، فهو يسعى إلى ترويض نفسه، ولكنها كثيرًا ما تجمح عليه، وتعامُلُه مع نفسه قد يشبه في إحدى وجوهه التعامل مع الطفل الذي لم يُفطَم من الرضاعة بعد، حسب وصف الشاعر:

والنفسُ كالطفلِ إن تتركه شبَّ على * حُبِّ الرضاعِ وإن تَفْطِمْه يَنفطِمِ

ومن لم يعرف الذي له فلن يعرف الذي عليه، ومن لم يعدل مع نفسه فلن يستقيم أمره مع الله، فالنفس ميزانٌ، إن مالت اضطربت نتائجها.

والنفس إذا تمَّ عقابها على (كلِّ) خطأ، كان فسادها أكثر من صلاحها، وإن توهم صاحبها أو مؤدبها من عقابها الإصلاح، فالأخطاء والمحرمات التي لم ترد لها عقوبات في الشريعة أكثر من الأخطاء التي وردت لها عقوبات، بل هي أكثر منها بأضعاف مضاعفة. كما يشير إلى ذلك الأستاذ عبد العزيز الطريفي.

وفي تهذيب النفس ثمَّةَ فرق بين (الضبط) و(الكَبْت)، (فالكَبْت) يترك فرصةً للداء؛ ليستشري خفيًّا حتى يتفجّر في نوازع النفس الإنسانية تفجُّرًا

على غير ميعاد وبدون احتياط، لكن (الضبط) يعترف بالغريزة، ويعترف بالميول، ويحاول -فقط -أن يهديها، ولا يهدمها.

وقد جاءت الشرائع السماوية، وفي مقدمتها الإسلام؛ لكي تتعامل مع النفس الإنسانية بطريقتين:

الطريقة الأولى: إعطاؤها حقها حتى تتوازن وتستقر.

والطريقة الثانية: منعها من غير حقها حتى لا تتمرد.

والنفس المطبوعة على (العجلة والحدة) إذا انتظرت شيئًا، فساعتها كاليوم بالنسبة للنفوس المعتدلة، والنفس (الباردة البليدة) إذا انتظرت شيئًا، فاليوم عندها كالساعة بالنسبة للنفوس المعتدلة، حتى لو كانت النفوس تنتظر شيئًا واحدًا فإنها تختلف في حساب الزمن.

كما أن النفس تُصوِّرُ لصاحبها تشدُّد غيرها؛ لكي تبرر تساهلها هي، وتُصوِّر له تساهل غيرها؛ لكي تبرر تشدُّدها هي، والتشدُّد والتساهل يقاس بالبعد عن الحق لا بالقرب من هوى النفس.

وليس يَردُّ النفسَ عن شهواتِها * من القومِ إلا كلُّ ماضي العزائمِ

(3)رمضان 1440 هـ

اعرف نفسك ... كي تستطيع قيادتها

العلم فعلًا صنع المعجزات، لكنه لم يُشبِع النفوس، ولم يُرِح الأرواح، كما يقول المفكر الجزائري مالك بن نبي، بل كانت نتيجته عكس ذلك، وقد أتت البراهين لتثبت أن العلم لا يستطيع أن يواجه المشكلات الإنسانية في عمق جوهرها.

وأعجبُ ما في هذا المخلوق البشري أن أداة الهداية له، يمكن أن تكون بذاتها أداة الضلال، وأداة الخير يمكن أن تكون أداةً للشر سواء! وما تحويل الإنسان العلم من أداة خيرٍ ورقيٍّ للبشرية إلى أداة هلاك -من خلال تطوير أسلحة الدمار الشامل -إلا واحدة من الأدلة الواضحة للعيان.

وبتعلمنا سِرَّ تركيب المادة وخواصها استطعنا الظَّفَرَ بنوعٍ من السيادة (تقريبًا) على كلِّ شيءٍ موجودٍ على ظهر هذه الأرض فيما عدا أنفسنا، حسب وصف المفكر (ألكسيس كاريل) في كتابه (الإنسان ذلك المجهول).

إن بعض النفوس تجعل العلم وما تختاره منه وسيلةً تُوصِلُها إلى تحقيق شهوتها، ولا تُخرِجُ من أدلته إلا ما تهوى، فتنتقي منه وبه ما تشتهي، كما ينتقي الآكل ما يشتهي من الطعام بملعقةٍ أو شوكة، فتجعل العلم آلةً كآلة تناول الطعام.

ولهذا فإن هذا النوع من النفوس تتناقضُ وتضطرب، وتقول في وقتٍ ما لا تقوله في آخر، ويراها الناس ويصفونها بالتناقض، وهي في حقيقة الأمر غير متناقضة؛ لأن غايتها واحدة في كلِّ الأحوال، وقد حددتها سلفًا، وهو جَعْلُ العلم لديها وسيلةً تلتقط به ما تشتهي، وليس غايةً كما يظهر للناس.

ولهذا كان العلم لبعض النفوس ضارًّا، و(السبب في النفوس لا في ذات العلم ومن خلاله)؛ لأنها تستخدمه في هواها وشهواتها، وإفساد غيرها به، فالعلم عند بعض النفوس سُلَّمٌ يُصعَد عليه، وليس غايةً يُوصَل إليها.

وقد تكون بعض النفوس المضطربة هي التي تُنزِل عقول أصحابها إلى دركات السَّفَه، حتى لو كانت عقولهم على قدرٍ كبيرٍ من العلم والذكاء، فأساس العلم في العقول، وأساس الاتزان في النفوس، و(لن يُستفاد من إناءٍ في يدٍ مضطربة).

إن العلم يُزكِّي العقل، والعمل يُزكِّي النفس، وأضعف الناس في الشدائد عالِمٌ بلا عمل، وعاملٌ بلا علم، كما يؤكد على ذلك الأستاذ عبد العزيز الطريفي.

إن الإيمان يؤثر في النفس أشد من تأثير العلم والخبرة فيها، حتى إنه لشدة تأثيره فيها قد يدفع طبع النفس المذموم ويقوِّمه، وقد يزيله كله، ولكن يبدو أن جميع ما حققه العلماء من تقدم فيما يتعلق بدراسة الإنسان بشكلٍ عام والنفس الإنسانية بشكلٍ خاص غير كاف، وأن معرفتنا بأنفسنا ما زالت بدائيةً في الغالب.

(4) رمضان 1440هـ

المرونة النفسية ... جهادٌ مستمر

أغلى ما يملك الإنسان مشاعره الداخلية، ففي داخله تتلاطم الأمواج وتحدث أضخم معارك الحياة، وعندما تصبح سفينتنا حائرة، ويشعر الكثيرون منا بأن دواخلهم ممزقة واتجاهاتهم خاطئة فإن هذا الشعور يكلفنا الكثير في حياتنا، ومما يعيد لنا عامل الاستقرار في حياتنا وشبكة علاقاتنا هو تمسكنا بعملية التوازن التي علينا أن نجاهد باستمرار لبقائها ودوامها.

أما الجهاد الأكبر فعلًا فهو جهاد النفس، الذي يزيد من صعوبته أن العدوَّ قد تغلغل وأصبح قابعًا بالفعل داخل نفوسنا، سواء كان الشيطان، أو من يمثلونه ويحلون محله في حال غيابه من بني البشر، تحقيقًا لقوله جلَّ في علاه: ﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴿١١٢﴾ ﴾ (الأنعام: 112)، هذا العدو مُمثَّلًا في نمطه الاستهلاكي والحضاري، الذي غزا أوطاننا واستوطن نفوسنا، فتشكَّلت بموجب ذلك عاداتٌ تحكمت فينا، وأصبحت تلك العادات حقيقةً مادية تصعب زحزحتها (ولا نقول إزالتها).

إن النفس البشرية تنزع إلى الرغبات نزوعًا يشتد إذا دفعها صاحبها إلى ذلك، لكنها -بطبيعتها أيضًا -تكتفي بالقليل إذا راضَها صاحبها، وأمسك بزمام أمرها.

والنفسُ راغبةٌ إذا رغَّبتها * وإذا تُردُّ إلى قليلٍ تقنعُ

والسعادة في إحدى معانيها قد تعني (الطرح) أكثر مما تعني (الجمع)، طرح نقائص النفس كي يتسلل الضوء والنور إلى داخلها!

إن المرونة النفسية والعقلية ليست شعارًا أو وصفًا لمنهج أو بشر، وإنما هي سُلَّمٌ مُتدرّجٌ حين نحاول الصعود من خلاله نواجه (عقبات) من داخل النفس وخارجها، ولكننا عندها نكون في الطريق الصحيح فعلًا، وحين نكبر وننضج تصبح تلك العقبات (وَسْمًا)جميلًا يطبعنا بالحكمة والهدوء، ومن اللافت للنظر أن المرء حين يتقدم في السنِّ يفقد من مرونته العقلية والنفسية على مقدار ما يفقد من مرونته الجسمية، حيث يكون التَيبُّس هو سيد الموقف، حسب تشبيه د . عبد الكريم بكار.

والخصائص النفسية الإيجابية لا بد من استخدامها وتدريبها (كالعضلات)؛ لتقوى وتشتد؛ لأنها إذا أُهمِلَت ذَوَت وضعُفت حتى كأنها غير موجودة، أو في حالة إعاقةٍ دائمة، ومِنْ هنا يعجز (العبد) عن التصرف الحر، لا لأن كيانه النفسي مختلفٌ في أصله عن كيان (الحر)، ولكن لأنه لا يستخدم أجهزة التصرف النفسية والعقلية التي منحه الله إياها، وهذا ما يلجأ إليه الاستعمار والحكام المستبدون في استعباد الشعوب نفسيًّا، إذ يسلبون الشعوب حرية التصرف فتُستعبَد على مر الأيام.

(5) رمضان 1440هـ

الرضا عن النفس سَبَبٌ لخسارتها

الإسلام -كسائر رسالات السماء-يعتمد في إصلاحه العام على تهذيب النفس الإنسانية قبل كل شيء، فهو يُكرِّس جهودًا ضخمة للتغلغل في أعماقها وغرس تعاليمه في جوهرها حتى تستحيل جزءًا منها. وما خُلِّدت رسالات النبيين وكوَّنت حولها جماهير المؤمنين إلا لأن (النفس الإنسانية) كانت موضوع عملها ومحور نشاطها، فلم تكن تعاليمهم قشورًا ملصقة، تسقط في مضطرب الحياة المتحركة، ولا ألوانًا مفتعلة، تبهت على مر الأيام.

والواقع أن النفس الإنسانية في ظل (التدين المعلول) تعجز عن القيام بوظيفتها في الحياة، كما يؤكد على ذلك الشيخ محمد الغزالي، بينما تستطيع القيام بهذه الوظيفة نفسٌ ليس لها من التدين إلا ما جُبِلت عليه من طباعٍ وأفكار، أي أن التدين الفاسد عطَّلَ أجهزتها الفطرية، أما الإلحاد فقد أبقى هذه الأجهزة تتحرك، وإن طاشت حركتها حينًا، وأخطأت غايتها حينًا آخر ..

وهذا هو التعليل لتخلف المسلمين في القرنين الأخيرين، على حين تقدم غيرهم، واستبد دونهم بتصريف الأمور وفرض ما يشاء.

إن المسلم مطالبٌ بأن يُدخِل حاجاته النفسية والجسدية جميعًا في منطقة الوعي، فيلبي منها ما هو حق (**وإِنَّ لنفسِكَ حقًّا**) (صحيح ابن خزيمة)، ويقاوم الرغبات والحاجات التي تشكل الاستجابة لها انحرافًا عن المنهج الرباني.

إننا نكرر الدعاء لأنفسنا، عندما نقرأ سورة الفاتحة في كل ركعة، كما نكرر غسل أعضائنا؛ لأن أسباب هذا التكرار قائمة، حسب تعبير الشيخ محمد الغزالي، فالجسم الإنساني لا يكفي في تطهيره أن يُغسَل مرةً أو مرتين، إذ لابد من تكرار الغسل مدى الحياة!! والطبع البشرى لا تصقله دعوة أو دعوتان فلا بد من تكرار الوقوف بين يَدَيْ الله مراتٍ ومرات؛ لأن رعونة النفس ووساوس الشيطان لا تنتهي، فلا بد من تكرار الدعاء، واستدامة التضرع: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ﴾ (النساء: 103)، " إن أصل كلِّ معصيةٍ وغفلةٍ شهوة الرضا عن النفس، وأصل كلِّ طاعةٍ ويقظةٍ وعِفَّة عدم الرضا عنها، ولأن تصحب جاهلًا لا يرضى عن نفسه خيرٌ لك من أن تصحب عالمًا يرضى عن نفسه، فأيُّ علمٍ لعالِمٍ يرضى عن نفسه؟ وأيُّ جهلٍ لجاهلٍ لا يرضى عن نفسه؟ " ابن عطاء الله السكندري.

إن الذي يبحث عن الشفاء هو الذي أحسَّ بالمرض، أما مَنْ أُصِيبَ بعِلَّة فلم يشعر بها ولم يتعالج منها، فإن جراثيمها تستشري في أوصاله حتى تأتى عليه، وكذلك النفس الإنسانية لا يَطلبُ لها العافية إلا مَنْ أدرك ما بها من أدواء، و(الشعور بالنقص أول مراحل الكمال)، يقول تعالى: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥٣ ﴾ (يوسف: 53) ومن التجارب الذاتية الكاشفة مقولة الدكتور عبد الوهاب المسيري الذي أخبر فيها أن اكتشافه للشر في النفس الإنسانية ومحاولة تفسيرها قد قاده بعيدًا عن الإيمان، وأن اكتشافه للخير في النفس الإنسانية قد عاد به إلى عالم الإنسانية والإيمان.

(6) رمضان 1440هـ

الوسطية مع النفس ... محافظة على الراحلة ومواصلة للسير

الوسطية والاعتدال ليست من البساطة بحيث تصبح سِمةً بارزةً في جميع الناس، فقد دلَّت الخبرات المتراكمة على أن المعتدلين في الناس قليل، وأن لدينا نحن البشر نزوعًا قويًّا إلى الغلو والتطرف، وأن الاعتدال والتوسط من الأمور التي تحتاج إلى تشغيل الذهن ومجاهدة النفس في آنٍ واحد.

والأصل في النفس الإنسانية أنها قابلة للتعلم؛ " لأن العلم والحكمة كامنان أصلًا في نفس الإنسان، وهما مركوزان فيها (بالقوة) في أول الفطرة، ولا بد من سَعْيٍ لإبرازهما (بالفعل)، كما لا بد من سَعْي في حفر الآبار لخروج الماء "

أبو حامد الغزالي.

وحاجة النفس الإنسانية إلى التهذيب والتزكية تماثل بَلْ تفوق حاجة العقل إلى الصقل والتثقيف، ونحن في هذا العصر نُنظِّم مراحل التعليم العام والجامعي فنقدِّر سِنيَّ الدراسة من عشر إلى عشرين سنة، كي نحصل على عقلٍ مستنير مُزوَّدٍ بقدرٍ محترمٍ من المعارف، تلك المعارف التي تجعله يحسن الإدراك والحكم على الأشياء من حوله، فكيف لا نُخصِّص مثل هذه الفترة - أو معها - للنفس، كي تستقيم طباعها وتعتدل ميولها، وتنضبط شهواتها، وتتكون لديها القدرة على التسامي ومحبة الفضيلة والخير ؟

والنفس قد تكره الخير؛ لأنها لم تتوطَّن عليه، وقد تكرهه؛ لأنها بعيدة عنه فتستوحش منه كما يستوحش ساكن الظلمة من النور، وليس من مصلحته مداومة البقاء في ظلمته؛ لأن نفسه تكره النور، ولكن عليه التدرُّج بها حتى تصل إلى النور، حسب تشبيه الأستاذ عبد العزيز الطريفي.

والصراع الخيِّر يقاوم في داخل النفس رغباتها المنحرفة، وميلها إلى الشر، وسَعْيَها إلى الفساد، والنفس لا بد لها من توجيهٍ دائم، وتقويمٍ مستمر، وإلا فإنها إن تُرِكت وشأنها هبطت بها قتامة الطين، وانفصلت عن إشراقة الروح.

(7) رمضان 1440هـ

هل يأتي الشيطان للإنسان إلا من الباب الذي فتحته نفسُه

إن الشيطان يستخدم في عمله عين الأسلوب الذي يستخدمه (السُوس) الذي ينخر في أسنان البشر، فالسوس يفضل العمل في (مقاتل الأسنان)، وهي المواضع التي لا يصل إليها السواك، ولا تصل إليها الفرشاة، وهكذا الشيطان يلعب على نقاط ضعفنا وغرائزنا، ويستغل معاناتنا والثغرات الموجودة في حياتنا كي يحصل على ما يحب الوصول إليه، إن طموحاته واسعة، وحركته دائبة وشاملة، والأبواب التي يدخل منها علينا تفوق الحصر والعد.

والإنسان مفطورٌ على إشباع رغبات النفس وشهواتها ولذاتها، فللنفس حقٌّ فطريٌ في أن تستمتع، فليست أصول رغبات النفس كلها شيطانية، وجميعها ليست عدوةً للإنسان، ومَنْعُ النفس من حقها في المتعة والشهوة أذيَّةٌ لها، وربما يدفعها ذلك إلى التمرد على صاحبها، والخروج عن قيده، كما ذكرنا في وقفةٍ سابقة.

وثمَّةَ فرقٌ واضح بين وسوسة الشيطان ووسوسة النفس وَفْقَ كلام الشيخ محمد متولي الشعراوي حين قال: " إن وسوسة الشيطان تتم بكلامٍ كاذب لتزيين المعصية، والشيطان لا يهمه أيَّ معصيةٍ ارتكبت، وإنما يريدك عاصيًا

على أيِّ وجه، ولكن النفس عندما توسوس لك بالمعصية، فإنها تريد شيئًا بذاته، وهذا هو الفرق بين وسوسة الشيطان، ووسوسة النفس، فالشيطان يريدك عاصيًا بأيِّ ذنب، فإن امتنعت في ناحيةٍ أتاك من ناحيةٍ أخرى، بعكس النفس التي تريدك عاصيًا بذنبٍ معين.

وهوى النفس ووسوستها، ووساوس الشيطان وتزيينه، يجب صرفها في الإسلام؛ لأن الاسترسال فيها يُصيِّرها مستساغةً عند العقل، وقد كان صلى الله عليه وسلم يفزع إلى الصلاة إذا حَزَبَه أمرٌ أو أهمَّه، فعند نزول الهموم تعتبر الصلاة مَجْلاةً للغموم؛ لأن النفس إذا اهتمت ضعُفت، وقوي شيطانها، فتحتاج إلى تثبيت الله وعونه، والصلاة أعظم صلة بين الإنسان وربه، وأعظم مصدرٍ من مصادر العون على النفس والشيطان.

والمتأمل في الآيات القرآنية الكثيرة التي تتحدث عن الشيطان ووسوسته وخطواته، كلُّ تلك الآيات تؤكد للإنسان أن الشيطان لا يأتي للإنسان إلا من الباب الذي فتحته نفسُه، هذا هو الغالب، وكأن هذا هو سر النهي عن استعذاب حديث النفس بالمعصية؛ لأن إجالة المعصية على الخاطر، واستماع الإنسان لحديث نفسه فيها، من شأنه أن يفتح الباب للشيطان، فيجتمع عليه النفسُ الأمارة بالسوء، والشيطان الأمَّارُ بالمنكر والبغي.

(8) رمضان 1440هـ

النفس عندما تُحَوِّلُ الدنيا من وسيلةٍ إلى غاية

كان أفلاطون يعتقد أن الخير (ضياء داخلي) يبدد ظلام النفس، وأن الإنسان لا يحتاج إلى أدنى جهدٍ للتمييز بين الخير والشر، يقول: " كما أن لهذه الدنيا شمسًا يُستضَاء بها، ويُعرَف بها الليل من النهار والأوقات والأشخاص والأجرام، فكذلك للنفس نورُ تميز به بين الخير والشر، وهو الحكمة، فإن الحكمة أشدُّ ضياءً من الشمس. وإن للنفس صحةً وسقمًا وحياةُ وموتًا، فصحتها بالحكمة، وسقمها بالجهل، وحياتها بأن تعرف خالقها، وتتقرب إليه بالبر، وموتها أن تجهل خالقها، وتتباعد عنه بالفجور "، وهذا كلام حسن حول النور الداخلي الذي يمكن أن يبدد ظلام النفس، ولكنه في حاجةٍ إلى قَبَسٍ من الوحي، وبَوْصلةٍ تتجه إلى الله لا إلى مجرد إلهٍ أيّ إله.

هذه النفس التي يمكن أن يطفئ نورها الداخلي هَلَعَها على الدنيا، تلك الدنيا التي جعلها الله زادًا للمعاد؛ ليتناول كلُّ إنسانٍ منها ما يصلح للتزود في طريقه للآخرة، فلو أن الناس تناولوها بالعدل لانقطعت الخصومات، ولكنهم تناولوها بالشهوات فتولدت الخصومات.

وعبادة الدنيا والاستغراق في مُتَعِها شأن الناس من قديم الزمان، ولكنها عبادة اجتاحت الناس في هذا العصر حتى لتكاد الآخرة تكون وهمًا، بل صار

حال البعض مع الدنيا وتغلغلها في نفسه، يشبه وصف أحد الشعراء لمحبوبه بقوله:

أيها الساكنُ عيني ودمي * أين في الدنيا مكانًا لستَ فيه

وبالمقابل فإن من شرف الدنيا ومن فضلها أن بها تُدرَك الآخرة، ونحن نقول هنا ما قاله إقبال: ليس القصد ألا يملك الإنسان الدنيا، ولكن ألا تملك الدنيا الإنسان، أيْ ألا تتحول الوسائل إلى أهداف، فيصف إقبال المؤمن بقوله:

وترى الدنيا انطوت في كَسْبِهِ * ليس منها ذرةٌ في قلبِهِ

والدنيا -ولو كانت قليلة -تحجب الإنسان عن رؤية الآخرة، فالدينار من الذهب لو قرَّبتْه العين منها، لم تَرَ جبل الذهب، فالدنيا ليست (بحجمها)، وإنما (بقربها)، فمن انتفع بها وأبعدها، لم تضره، ولو كانت كثيرة، ومَنْ قرَّبها أعمته، ولو كانت قليلة.

إن الله سبحانه وتعالى ضَمِنَ لنا الدنيا، وطلب منا الآخرة، وليته ضَمِنَ لنا الآخرة وطلب منا الدنيا كما يقول بعضهم، فالدنيا -إذًا -تقاس بعمر الإنسان فيها لا بعمر ذات الدنيا لغيره؛ لأن عمر الدنيا لغيره لا يخصه، الناس كما قيل قد " خُلِقُوا للعبادة وخُلِقَت لهم الدنيا؛ ليستعينوا بها، فانشغلوا بما خُلِقَ لهم عما خُلِقوا له "، ومن قنع من الدنيا باليسير هان عليه كلُّ عسير.

إذا اختبر الدنيا لبيبٌ تكشَّفَت * له عن عدوٍّ في ثيابِ صديقِ

(9) رمضان 1440هـ
عوامل بناء النفس

بناءُ النفس إنما يتم من خلال الزمن، بعرض الأفكار عليها بوسائل مختلفة فكرةً فكرة، والقلب الذي يتقبل الفتنة والشر، تنكت فيه نكتةً سوداء، والذي يرفض يبقى أبيضًا لا تضرُّه فتنة، وكذلك العرض المستمر المتتابع على القلوب كنسج الحصير كما جاء في حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم.

وهذا الحديث يشير إلى كيفية ترسُّخ ما بالنفس، حيث يصل رسوخ ما بالنفس إلى درجة النسيان (اللاشعور)، ولكن هذا النسيان والغياب عن الوعي لا يجعله يكفُّ عن التأثير على عمل الإنسان وسلوكه، بل يبقى مؤثرًا ولو كان خارجًا عن الوعي.

وهنا يمكن أن يشبه ما يحدث في النفس من ترسُّخٍ للأفكار، من أن النفس تُحوِّل بعض الأفكار إلى الأعماق (اللاوعي)، مما يجعل هذه الأفكار تعمل عملها (آليًّا) كما يحدث في بعض أعضاء الجسم عند الإنسان التي تعمل آليًّا، وكذلك الأفكار المترسبة في الأعماق تعمل آليًّا، وتستجيب للأحداث والمثيرات استجابةً آلية، ولا يُشترَط أن يكون كلُّ ما ترسَّخ صوابًا، بل الخطأ أيضًا يترسَّخ، وقد يكون الصوابُ فيه قليلًا، حسب وصف الأستاذ جودت سعيد.

والنفس تعاند وتكسل، والحازم من ينتبه في تلك الأيام، ويمتنع عن أن يرتكب المعاصي إذا لم يجد نشاطًا نحو الخيرات، فإذا نجح في فَطْم نفسه عن الشهوات فقد استوفى فنَّ سياسة النفس، وأصل ذلك أن يقطع الاسترسال مع الوساوس فيقف، ولا يتجاوز إلى ساحة المعصية، فالبنية النفسية للإنسان هشة جدًّا، حيث تَستخِفُّه كلمة الثناء، وتفتنه نظرة الإعجاب، وتقضُّ مضاجعه كلمة نابية، ولما كان تطهير النفس ينتقل بالعدوى كان تطهير الإنسان لنفسه باعثًا على تطهير البيئة التي يعيش فيها.

إن قهر الشهوات الكامنة في النفس لهو أشقُّ بكثير من قهر العالم أجمع بحد السيف، كما يقول غاندي، ومداراة النفس عند الملمات والمصائب والوقائع الكبيرة، علاجٌ واجب، فالنفس القوية لا تبقى قوية، بل يأخذ منها الاستهلاك ما يأخذ، وهي تتعب وتضعف.

(10) رمضان 1440هـ

النفس بين الفردية والجماعية

لو كان الإيمان بالقول لكان الأمر سهلًا، لكن الذي يجعل الأمر صعبًا هو أن الإيمان هو العمل، أي حَمْل النفس على منهج الإيمان، لقد استكبر بعضٌ من الذين عاصروا محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يقولوا:(لا إله إلا الله)؛ لأنهم فهموا مطلوبها؛ لأن الأمر لو اقتصر على مجرد كلمةٍ تقال بلا رصيدٍ من عملٍ يؤديها، لكان أسهل عليهم أن يقولوها، لكنهم كانوا لا يقولون الكلمة إلا بحقها، ولذلك أيقنوا تمامًا أنهم لو قالوا:(لا إله إلا الله) لانتهت كلُّ معتقداتهم السابقة، لكنهم لم يقولوها؛ لأنهم أبوا وامتنعوا عن القيام بحقها وأداء مطلوبها .

والإنسان حين يأتي إلى هذه الدنيا، يُولَد على الفطرة، ويعتبر مؤهلًا ليكون (مشروع) إنسان سوي (على الفطرة التي فطره الله عليها)، وما يحدث بعد ذلك لهذا الإنسان هو نتائج لما تقوم به البيئة المحيطة به (فأبواه يُهَوّدانِه أو يُنصِّرانِه أو يُمجِّسانِه) (صحيح مسلم)، والأمر يتعدى الأسرة ليشمل كلَّ المؤثرات في المجتمع، وعلى هذا الأساس فالنفس الإنسانية ليست خيِّرةً أو شريرةً بطبيعتها، وإنما العوامل البيئية الاجتماعية هي التي تضفي على النفس خصائص الخير والشر. حتى أننا نجد أن (الفرعنة والعنترة) ليست أمرًا كامنًا في النفس البشرية، وإنما هي أمر يكتسبه المرء ممن حوله.

إن النفس كما أنها أمانة فردية فإنها نتاج روابط اجتماعية وعلاقات تفاعلية تتأثر بها وتؤثر فيها، لذا تكرر استخدام لفظ ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ بصيغة الجمع في القرآن، ومِنْ هنا فإن الإصلاح والإفساد بمفهوميهما الواسع لهما مستويان: فردي وجماعي، والدوائر بالغة التركيب والتشابك، وميزانها فريد.

وما يمكن أن يتمايز به الفرد يرتبط بالوظيفة الاجتماعية، فالفرد في الإسلام ليس مؤسسة قائمة بذاتها من القدرات والمهارات والرغبات، بل إنه مُستخلَفٌ في كلِّ ما أنعم الله به عليه من قدراتٍ ومهاراتٍ وإمكاناتٍ مادية، مُستخلَفٌ في عقله، ووجدانه، وحواسه، وجسمه، ووقته، والنفس في الإسلام لا يمكن أن تكون الإطار المرجعي للإنسان كما في الحضارة الغربية، بل نحن مطالبون بالدخول في حوارٍ ساخنٍ مع النفس طالما ظللنا أحياء استنادًا إلى علاقتنا بالله عز وجل، فالنفس في الإسلام تحمل نوازع خيِّرة وأخرى شريرة، ونحن مطالبون بأن ننصر الخير في نفوسنا على الشر .

إن قدرة الإنسان على التصرف بأحواله النفسية أكبر بكثير من قدرته على التصرف بأحوال جسمه. كما أن مرض الغرور والثقة المبالغ فيها بالنفس قد يتولد من التشجيع غير المقترن بالحكمة، مما يسبب الضرر لمن أردنا نفعه والإحسان إليه. كما أن شدة الاختلاط بالناس تستهلك الشخصية، وتستنفد الطاقة الفكرية والنفسية للمرء، والإنسان مطالبٌ أن يسعى للتوازن في علاقته بالآخرين، فلا يندمج إلى درجة الذوبان، ولا ينفصل إلى درجة الاغتراب.

(11) رمضان 1440هـ
النفسُ في خَلَواتِها

رقابة الإنسان على نفسه -وفوق ذلك رقابة الله -أعظم أثرًا من جَعْل غيره من البشر رقيبًا عليها؛ لأنه يخلو بنفسه أكثر من مخالطته للناس غالبًا، فجاءت النصوص وافرةً في تعظيم ذنوب الخلوات، وكذا تعظيم التقوى وخشية الله في القلب، حتى يتوازن حفظ النفس في السر والعلن؛ لأن الإنسان في خاصته يضعف وازع الطبع عنده؛ لأن الحياء من الناس يزول بزواله عنهم، وَفْقَ رؤية الأستاذ الطريفي.

إذا ما خلوتَ الدهرَ يومًا فلا تقُل * خَلَوتُ ولكن قُلْ عليَّ رقيبُ

ولا تحسبنَّ اللهَ يغفلُ ساعةً * ولا أنَّ ما تُخفيهِ عنهُ يغيبُ

إن منهج الشيطان يحتاج إلى خَلْوة، إلى مكانٍ لا يراك فيه أحد، ولا يسمعك فيه أحد؛ لأن العلن في منهج الشيطان يكون فضيحة، وقد يُسهِّل الله للإنسان ذنوب الخلوات؛ ليختبر إيمان الإنسان، ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴿٩٤﴾﴾ (المائدة: 94) .

وإذا خلوتَ بريبةٍ في ظُلْمةٍ * والنفسُ داعيةٌ إلى الطغيانِ

فاستَحْيِ من نَظَرِ الإلهِ وقُلْ لها * إن الذي خلقَ الظلامَ يراني

وكما أن طاعات الخلوات أعظم، فكذلك ذنوبُ الخلوات أخطر؛ لأن مَنْ لم تَخَفْهُ في سرك لن تطيعه في علانيتك إلا نفاقًا، فربُّ السر هو ربُّ العلانية. وأعظم أسباب الثبات عبادة السر، وأعظم أسباب الانتكاسة ذنوب الخلوات.

إن الذنوب لتحرم العبد التوفيق للعمل الصالح، وأعظم الذنوب هي الذنوب الباطنة، سواء كان من النيات السيئة، أو ما يفعله العبد من ذنوب الخلوات خلاف ما يبديه من طاعةٍ في العلانية.

وتنبع أهمية القيم من كونها تضبط سلوك الفرد من الداخل (الضمير أو الوازع الداخلي)، حيث تعجز الأنظمة والقوانين والأعراف عن ضبط تصرفات الإنسان في خلواته وشؤونه الخاصة، والقيم الخيِّرة -عامةً -لا تُفرَض على الناس فرضًا، لكنها تجذبهم إليها جذبًا فيتمثلونها، ويضحون في سبيلها عن طيب خاطر وخضوعٍ تام. والإجبار على الفضيلة لا يخلق مجتمعًا فاضلًا، بل مجتمعًا منافقًا، والقيم كبصمات الأصابع لا يتشابه فيها اثنان، لكنها تترك أثرها في كلِّ عملٍ يقوم به الإنسان.

(12) رمضان 1440هـ

النفس بين الإيجابية والسلبية

بعض الناس لا يرى في نفسه سوى الضعف والعجز، فهو في نظر نفسه لا يصلح لأي شيء، وبعض الناس معجبٌ بنفسه مع تقصيره في بعض الواجبات الأساسية، وبعض الناس تعرَّض لضغوط نفسية ومعاملة قاسية، فنشأ وهو لا يعرف سوى الرضوخ والخضوع والسلبية، فهو دائمًا إمَّعة، لا يعرف للمبادرة الفردية أيَّ معنى، د. عبد الكريم بكار.

وقيمة الأشياء بالوظائف والأدوار التي تؤديها، وكلما كثرت الوظائف الإيجابية للشيء عَلَت قيمته، واشتدت الحاجة إليه، وصار إحساسنا به أقوى، وهذا ما هو مطلوب في النفس الإنسانية؛ ليرتفع رصيدها في جانب الإيجابية.

وتعتبر السلبية والإيجابية استعدادين فطريين، يؤدي كلٌّ منهما مهمةً معينةً للحياة، فالسلبية والإيجابية كما يحدد ذلك الأستاذ محمد قطب خطَّان متقابلان في النفس الإنسانية قريبا الشَّبَهِ بخطَّيْ (الالتزام والتحرر)، ولكنهما لا يتطابقان، فالالتزام قد يكون سلبيًّا (آليًّا)، وقد يكون إيجابيًّا نتيجةَ تصميمٍ وإصرار، كما أن التحرر -وإن غلبت عليه صفة الإيجابية -قد يكون أحيانًا تحررًا ظاهريًّا من القيد، ورغبةً في الانسياق السلبي وراء الشهوات.

إن من مفردات الإيجابية (الجاهزية للعطاء)، وتعدي النفع للآخرين، الذي يمثل من وجهٍ آخر مصدرًا ثريًّا للراحة والاطمئنان النفسي والسعادة الذاتية، وفي زماننا هذا أصبح غير المباشر أهم من المباشر، كما يشير إلى ذلك د. عبد الكريم بكار، ويكون الردع عن طريق الفعل أقوى من التأثير عن طريق الكلام، كما تكون الحركة الإيجابية أهم من الموقف السلبي الشاحب والمحتج.

وما ينطبق على الفرد ينطبق على المجتمع، فعندما تُكَوَّن صورة سلبية في أذهان أفراد هذا المجتمع، فإن ذلك سيدفع بالمجتمع في طريق الهبوط دائمًا، إننا عندما نردد فيما بيننا أوصافًا سلبيةً ننعت بها مجتمعنا، فإنما نساعد على تكريس هذه الأوصاف وانتشارها في المجتمع. ولهذا يعتبر الإنسان السلبي والمنعزل عن المجتمع نصفَ إنسان، أو إنسانًا ناقصًا.

(13) رمضان 1440هـ

البركة ليست أرقامًا وأرصدة .. بل طمأنينة قلب وراحة نفس

البركة خَلْقٌ من خلق الله، وهي بالفعل حقيقة من حقائق خلقه سبحانه وتعالى، فبها يعمل الدرهم عمل الدينار، وبدونها لا يعمل الدينار عمل الدرهم. كما أن البركة في الأعمار ليست بالطول والعرض، بل بالعمق، فعندما يبارك الله في عمر أحدهم فإنه يُوفَق لإنجاز أعمالٍ في العام الواحد لا ينجزها منزوعُ البركة في عشرة أعوام، ومثل ذلك البركة في الأعمال، فليست بركة الأعمال بكثرتها، بل بالتوفيق إلى الأعمال التي تُبقي الإنسان موصولًا بالله قلبًا وعقلًا، لا تلك التي تُشتِّتُه إلى درجةٍ ينسى فيها ربه ونفسه.

والبركة يُؤذَن لها أن تستمر ما كان المؤمنون على سنة البساطة والتواضع وصفاء النفس، لكن مع كلِّ جزئية تكبُّرٍ، وإدلالٍ، وإظهار أستاذية، وفوقيةٍ، ورسومٍ رئاسية، ترتفع مثاقيل من البركة الربانية، حتى يسود العجز، وتكون يبوسة العلاقات، ويَسُومُنا جفافُ المشاعر أنواعًا من العذاب، كما أشار إلى ذلك الأستاذ محمد أحمد الراشد.

والبركة في القرآن ليست نماء الأرقام، ولا تراكم الأرصدة، وإنما نماء أثر المال بالطمأنينة والكفاية والقناعة وتيسير الحاجات ولو بالقليل؛ لأن المال يُسعَى إليه طلبًا للسعادة والراحة، وكثيرٌ من أهل المال الحرام يغترون بالأرقام

ونمائها، فيزيدهم همًّا وضيقًا وعذابًا للنفس، فيخلُقُ له الخصوم وقطيعة الأرحام، ويُعلِّقه الله بتتبع القليل من المال ليُشقِيه، حتى إنه لو كان فقيرًا لكان ذلك أهون عليه من غناه، ومن أعظم أنواع العذاب كما يقول الأستاذ الطريفي: العذاب بالنعمة يهبها الله الإنسان ليتمسك بها، بل يبحث عنها بشغفٍ فيعذبه الله بها، فلا هو الذي يريد الخلاص منها برغبته؛ ليتوقف عذابه، وهو بالمقابل عاجزٌ عن تركها، بخلاف العذاب بالنقمة والمصيبة والمرض، فالإنسان يسأل الله منها الشفاء والعافية، ويتمنى منها مخرجًا، فلو فتح له باب إلى العافية والشفاء لخرج، وأما الغنيُّ المُعذَّب بماله، فلو فتح له باب إلى الفقر لما خرج إليه، فيعذبه الله بماله وهو مُمسِكٌ به .

(14) رمضان 1440هـ

الشهواتُ وَقود النفس

نفس الإنسان الواحد تختلف في شهواتها وميلها، فقد تشتهي اليوم ما تعافه غدًا، وقد تكره شيئًا في يومٍ، ثم تُقبِلُ عليه بنَهَمٍ وشراهةٍ في يومٍ آخر، وكذلك فإن مقادير إقبالها ونفورها تختلف من شهوةٍ إلى شهوة، ومن يومٍ إلى يوم، ومن حالٍ إلى حال، والعقل لا يعطيها ما تريد كيفما تريد، ولا متى أرادت؛ لأن النفس تميل ولا تُقدِّر الزمان والمكان والحال، فقد تستعجل ما فيه ضررها، وتؤخر ما فيه نفعها، وقد تزعم التوسط وهي مائلة؛ لأن لها شهوة مِنْ زَعْمِها، والعقل يَزِنُ ويضبط، ويشدُّ ويُرخي، ويجذبُ ويدفعُ ويزجر، فالنفس خُلِقت لهذا، والعقل خُلِق لهذا.

وبين العقل والنفس من الصراع والمدافعة الدائمة التي لا يمكن أن تنفكَّ في ساعةٍ من الساعات، وربما لا تنفكُّ في لحظةٍ من اللحظات، فالعقل لديه عِلْمٌ وقناعة، والنفسُ لديها طَبْعٌ ومَيْلٌ وشهوة، ويتجاذبان في كلِّ أمر، وربما في الموقف الواحد مرات، النفسُ تريد تحقيق مآلها، والعقل يريد أن يسير بما يعلم ويقنع.

والعقول الصحيحة لا تجعل للنفس حرية الاختيار في أزمنة الشهوات وأوقاتها، وليس للعقل أن يغلق عليها منافذ الشهوة في كلِّ حين، بل يجب أن يكون اختياره للوقت موافقًا لرغبتها وميلها، ولا توجد شهوة إلا وهي نابتة على

أرض شهوة، حتى تتحول إلى كونها مذهبًا متبوعًا، وربما دينًا أو عادةً في الناس، وهذه قاعدة في كلِّ الأمم والشعوب تصنع شهواتِهم مذاهبُهم الباطلة، والنفس إذا اشتهت هَوِيت، فالشهوة قبل الهوى، وكلاهما نسبهما الله إلى النفس، سواء أكانت خيرًا أم شرًّا، كما يؤكد الأستاذ الطريفي.

والمعصوم مَنْ عصمه الله، والمفتون مَنْ تركه الله لشهواته، ومَنْ كان مع الله في يُسْرِه كان الله معه في شدّته.

(15) رمضان 1440 هـ

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ ١١﴾

تختلف أصول نشأة النفوس، وبحسب طبيعة نشأتها تكون شدة تجذُّر الطباع فيها، ومن هنا تكمن صعوبة تغييرها، ويتبع ذلك شدة تأثيرها في الإنسان وعقله، فمن الطبائع ما أصل نشأتها مع الإنسان في تكوينه، فهي مخلوقة فيه كما خُلِق السمع والبصر، ومنها ما لا يُولَد معه، ولكن يتطبع عليه بحسب نشأته ومحيطه، حتى يصبح طبعًا ملازمًا له.

وعبارة (تغيير النفس) ليست هي الصحيحة، فتغيير ما بالنفس أصحُّ تعبيرًا؛ لأن النفس وعاءٌ للمفاهيم الخيِّرة أو الشريرة، مفاهيم الخطأ والصواب، بنص التنزيل الحكيم: ﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ٨﴾ (الشمس: 8)، وتغيير ما في النفس وظيفة البشر .

ويجب على المسلم كما يقول مالك بن نبي: أن يضطلع برسالته، وأن يفكر في إعجازه، وإعجازه لا يتأتى إلا بتحقيق شرطٍ جوهري، وهو تغيير ما بنفسه، وتغيير ما في محيطه مصداقًا للآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ ١١﴾ (الرعد: 11) .

ومن البصيرة أن ينظر الإنسان إلى ما يرغب في تغييره في نفسه، فإن كان ممكنًا بادر إلى تغييره دون تأخير، وإن كان غير ممكن لظروفٍ زمانية أو مكانية، أو (لأحوالٍ تتعلق بحال الإنسان)، فلْيَتحيَّن الفرصة السانحة للتغيير، ويقوم بعملية التغيير، فهناك أناسٌ يترددون عن التغيير الذي حان أوانه عجزًا وكسلًا، وهناك أناسٌ يتكلَّفون تغييرًا لم يَحِنْ أوانه بعد، وكلاهما خاطئ.

إن على الإنسان أن يردد ذلك الدعاء الذي دعا به أحدهم قائلًا: اللهم امنحني الشجاعة لتغيير الأشياء التي باستطاعتي تغييرها، بل يتعين عليَّ تغييرها، وامنحني السكينة التي تساعدني على تقبل الأشياء التي لا يسعني تغييرها، وامنحني الحكمة لأدرك الفرق بينهما.

(16) رمضان 1440هـ

لماذا الحديث عن النفس الإنسانية؟

كان الأصل أن تتم الإجابة على هذا السؤال في بداية هذه الوقفات، ولكنني كنت أعتقد أن الأمر في هذا الشأن واضح، ولا يحتاج إلى مزيد بيان، وعندما وردتني استفسارات من بعض الإخوة والأصدقاء عن السبب الذي جعلني أفرد هذه الوقفات للحديث عن النفس وتزكيتها، رغم أن هناك مواضيع كانت أحق بالطرح والتأمل - حسب وجهة نظرهم - دعتني تلك الاستفسارات لإفراد هذه الوقفة للإجابة على هذا السؤال، وستتمثل الإجابة على هذا السؤال في نقاط قصيرة؛ لأن بَسْطَ الموضوع يحتاج إلى حديثٍ مستفيض ومساحةٍ أوسع، وإليكم أهم الأسباب من وجهة نظري:

1 - القرآن الكريم حافل بالآيات التي تصف النفس الإنسانية في مختلف حالاتها: سوية وشاذة، صاعدةً وهابطة، خيّرةً وشريرة، مُقبِلةً ومُعرِضة، مؤمنةً وكافرة، لاصقةً بالطين أو مرفرفةً في عالم النور، وفي هذا دلالة على مركزية النفس في الخطاب القرآني، ومكانة هذه النفس في توجيه مسار الإنسان نحو التقوى أو الفجور.

2 - أن الله ربط التغييرات على مستوى الفرد وعلى مستوى الأمم بما يحدث داخل هذه النفس أو مجموع النفوس، ففلاح الفرد مرتبطٌ بتزكيته لنفسه، وخيبته مرتبطةٌ بتَدْسِيتها: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ (الشمس:

10)، بل أقسم الله بأحد أنواع النفوس التي خلقها - والله لا يُقسِم إلا بأمرٍ عظيم - فقال جلَّ ثناؤه: ﴿ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ ﴾ (القيامة: 2)، طبعًا هذا على مستوى الفرد الواحد، أما على مستوى الأمة فقد ربط الله تغييره لحالها بمقدار ما تُغيِّره بأنفس أفرادها، وجعل ذلك قاعدةً مطردة، وسنةً جارية في أية عملية تغيير يمكن أن تحدث: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ ۝١١ ﴾ (الرعد: 11)، بل جعل سبحانه وتعالى تغيير الحال في النعم والنقم مرتبطٌ أشد الارتباط بما يدور من تغييرٍ داخل النفوس: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ۝٥٣ ﴾ (الأنفال: 53).

3 - أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم استمر في معالجة نفوس أصحابه، وإخراجها من حظوظ ذواتها فترةً طويلة وصلت إلى ثلاثةٍ وعشرين سنة هي سنوات نبوته ورسالته، ومع ذلك انتقل إلى جواررربه ولا زال للنفاق في المدينة سوق رائجة، وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدلُّ على صعوبة تغيير ما بالأنفس إذا ترسخ وثبت ما بداخلها، وأن الجهاد في هذا المجال، ومحاولة إصلاح شأن النفس وتزكيتها جهاد كبير سواء لنفس الإنسان فردًا أو لغيره من الناس .

4 - أن النفس الواقعة في شهواتها وملذاتها كثيرًا ما تمسك بزمام العقل؛ ليُبرِّر لها شهواتها، فتصبح الشهوات بريدًا وبذورًا للشبهات، فيهلك الإنسان من حيث يظن أنه ينجو: ﴿ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ

يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ (الكهف: 104) فتزيّن النفسُ القبيح للإنسان ليصبح حسنًا جريًا وراء شهواته: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴿٨﴾ ﴾ (فاطر: 8)، وكم من أعمالٍ يظنُّها أصحابها قُرْبةً إلى الله، وهي في الحقيقة نابعة من هوى النفس وشهواتها .

5 - أن ظهور الفساد في البر والبحر ناتجٌ عن نفوسٍ انتكست فطرتها، وسارت في غير طريق ربها، فشهوة الملك والسلطان، وشهوة القوة والنفوذ، وشهوة المال، وشهوة الجاه، وشهوة ... كلها رغائب نفسٍ جانبها التوفيق، وما حال المسلمين اليوم إلا إشارة واضحة إلى طبيعة الأنفس التي يحملها الناس حكامًا ومحكومين، فالأمراض النفسية التي سماها أبو حامد الغزالي (المهلكات في مقابل المنجيات) فاشية في المجتمع، كالكبر، والغرور، والحقد، والانانية، والغيبة والنميمة، وغيرها من الأمراض، وهي سببٌ في الأعراض والمصائب والنكبات التي تجعل الأمة في حالةٍ من العداء والصراع والتمزق والتفكك والذلة والهوان، هانت عليهم نفوسهم فأسلموها لهواها وشهواتها وشيطانها، فهانوا على الله فأوكلهم لأنفسهم، ولا صلاح للمجتمعات إلا بصلاح الإنسان ذاته، ولا صلاح لهذا الإنسان إلا بصلاح ما في نفسه .

(17) رمضان 1440هـ

إنما الغنى غنى النفس

الفقر فقر النفس، فإذا افتقرت لم ينتفع الغنيُّ بغناه، وإذا اغتنت لم يتضرر الفقير بفقره؛ لأن غنى النفس يكون بقناعتها بما عندها، وبسياسة العقل لها عند حاجتها إلى غيرها، حتى لا تنكبَّ فتكون أسيرةً ذليلةً لغيرها. وقول النبي صلى الله عليه وسلم:(لو كان لابنِ آدمَ واديان من مالٍ لابتغى واديًا ثالثًا ولا يملأُ جوفَ ابنِ آدمَ إلا الترابُ) (صحيح مسلم)، فيه دليلٌ على نَهَم النفس، وعدم وقوفها عند حد، وفيه أن النفس تتدرج في غرائزها ولا تنقطع، وذلك تسكينًا للعقل أن يصدَّها عن شهواتها.

ولا توجد نفسٌ خَلَت من نوازع الظلم والشر خُلُوًّا مطلقًا، كما لا توجد نفسٌ أُفرِغت من نازعة العدل والحق إفراغًا تامًّا، والمداولة التي تكون على ظهر الأرض بين دعاة العدل والظلم تكون هي عينها داخل النفس الإنسانية، فينتصر فيها العدل حينًا ويُغلَب حينًا.

والله لم يذُمَّ العقل لذاته، ولكنه ذمَّ النفس لذاتها، فإذا ذكر العقل ذمَّ عدم استعماله وإعطائه حقه في التفكر والتأمل، وعقول الأصحاء تتفق في خَلْق الله لها، كما يؤكد ذلك الأستاذ الطريفي، ولكنه جعل الاختلاف في نفوسهم وميولها ورغباتها، والعقل لم يُخلَق ليشتهي، ولكنه خُلِق ليدلَّ، ويهدي، ويتفكر، ويُري صاحبه الطريق، والنفس خُلِقت لتشتهي، وتهوى،

وترغب، وتحب، وتكره، وتفرح، وتحزن، وترضى، وتغضب، والعقل يُرِيها الصحيح والخطأ، ويميز لها الشرَّ والخير، والنافع والضار من طبائعها وشهواتها وأعراضها، وذلك بحسب ما في العقل من علمٍ ومعرفة، وخبرةٍ وتجربة في هذه الحياة .

(18) رمضان 1440هـ

الوقاية خيرٌ من العلاج

شبَّه الله في القرآن ما في قلوب المنافقين بأنه مرض، فقال عزَّ من قائل:

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ (البقرة: 10)، والمرض أولًا يُورِث السُّقْم، فكأن قلوبهم لا تملك الصحة الإيمانية التي تحيي القلب فتجعله قويًّا شابًّا، ولكنها قلوبٌ مريضة، لماذا كانت مريضة ؟ لقد أتعبها النفاق، وأتعبها التنافر مع كلِّ ما حولها، وأحسَّت أنها تعيش حياةً مِلْؤُها الكذب، فاضطراب القلب جعله مريضًا، ولا يمكن أن يشفى إلا بإذن الله، وعلاجه هو الإيمان الحقيقي الصادق.

إنهم (أي المنافقين) أصحابُ قلوبٍ مريضةٍ سقيمة، كما يقول الشيخ الشعراوي، لا يدخلها نور الإيمان، ولذلك فهي قلوبٌ ضعيفة، ليس فيها القوة اللازمة لمعرفة الحق، وهي قلوبٌ خائفة من كلِّ ما حولها، مرتعبة في كلِّ خطواتها، مضطربة بين ما في القلب وما على اللسان، والمريض لا يقوى على شيء، وكذلك هذه القلوب لا تقوى على قول الحق، ولا تقوى على الصدق، ولا ترى ما حولها، تلك الرؤية التي تتناسب وتتفق مع فطرة الإيمان التي وضعها الله تعالى في القلوب.

وقد تحب النفسُ شيئًا اليوم وتكرهه غدًا، فهو لها اليوم عافية وغدًا مرض، ولذا ينبغي قيادة النفس إلى ما فيه عافيتها، ما لم يكن منهيًّا عنه، أو فيه ضررٌ على غيرها، وكثيرٌ من النفوس تمرضُ وتُنهَك بسبب عجزها عن اختيار ما تريد، والمؤمن يطلب المُحكَم من كلام ربه فيشفيه، والمنافق يطلب المتشابه فيُمرِضه.

وهناك نوعٌ من الاشتراك بين النفس والجسم في إصابتهما بالأمراض، ولذلك يجب على الإنسان الذي يقي جسمه من الأمراض أن يقوم بنفس المهمة فيقي نفسه من الأمراض، فمهمتنا الأولى في تربية الجسم ليست علاجه، وإنما وقايته من الأمراض، وقد تكون الوقاية الكاملة مستحيلةً، ومع ذلك نحاولها دائمًا، ويجب أن نحاولها؛ لنُقلِّل فرصة المرض إلى أقصى حدٍّ ممكن، ونَصِلَ إلى أقرب نقطةٍ نستطيعها من الكيان السليم للجسم.

وبالمقابل فإن مهمتنا الأولى في تربية النفس هي وقايتها من الانحراف، وستكون الوقاية الكاملة مستحيلة، ومع ذلك ينبغي أن نحاولها؛ لِنُقلِّلَ فرصة المرض إلى أقصى حدٍّ ممكن، ونَصِلَ إلى أقرب نقطةٍ مستطاعةٍ من الكيان السليم للنفس.

(19) رمضان 1440هـ

(حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبوا)

اليقين الذي لا شكَّ فيه هو أننا جميعًا سنلاقي الله سبحانه وتعالى يوم القيامة. وسيحاسبنا على أعمالنا. ومع أن هذا يقين، فإن كثيرًا من الناس لا يلتفتون إليه، ولكنهم يسعون للمستقبل المظنون، والنفس بطبيعتها تميل إلى الشهوات، ومن حاسب نفسه علم عيوبها وزلاتها ومواطن الضعف فيها، ومِنْ ثَمَّ استطاع وَصْفَ الدواء الناجع لها. ومَنْ عرف عيبه كان أحرى بإصلاحه. والإنسان محاسب على ما يقدر عليه ويختاره.

ومحاسبة النفس ينمي الشعور بالمسؤولية، ووزن الأعمال والتصرفات بميزانٍ دقيق، ألا وهو ميزان الشرع لا ميزان الهوى. والنفس إن خَلَت، أكثرت التفكر والتأمل والمحاسبة، فتتذكر من التقصير ما لا تتذكره في سكرة متعتها.

والمحاسبة تروِّض النفس وتهذبها، وتزيد العمل الصالح، وتُولِّد الحياء من الله، وتلزم الإنسان خشية الله ومراقبته في السر والعلن. وقد سُئِلَ الإمام علي رضي الله عنه: كيف يحاسب الله الناس جميعًا في وقتٍ واحد؟ فقال: كما يرزقهم جميعًا في وقتٍ واحد.

والمحاسبة على ثلاثة أقسام: محاسبة (قبل العمل)، من حيث مشروعية هذا العمل والإخلاص فيه، ومحاسبة (أثناء العمل)، بمداومة الإخلاص فيه وإتقانه، ومحاسبة (بعد العمل) خوفًا من التقصير فيه ومخافة عدم قبوله،

" والكيِّسُ من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، ثم تمنى على الله "، (ابن ماجة).

(20) رمضان 1440هـ

التوبة .. تصحيحٌ لمسار النفس من ذنوبها

تشريع التوبة ليس رحمةً بالعاصي وحده، ولكنه رحمة بالمجتمع كله، فالإنسان إذا عصى وعرف أنه لا توبة له، وأنه محكوم عليه بالخلود في النار، فإنه يتمادى في إجرامه؛ لأنه مادام لا أمل له في النجاة من عذاب الآخرة، فإنه يتمادى في المعصية؛ لأنه لا أمل في الغفران أو التوبة.

والله سبحانه وتعالى الذي خلق الإنسان لم يتركه لحظةً واحدة على الأرض دون أن يُعْطِيَه المنهج الذي يبين له طريق الهدى وطريق الضلال، يقول جلَّ جلاله: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ (طه: 124)، ومع وجود المنهج شرع الله التوبة، وشرع قبول التوبة، حتى لا ييأس الإنسان، ولا يحس أنه إذا أخطأ أو نسي أصبح مصيره جهنم، بل يحس أن أبواب السماء مفتوحة له دائمًا، وأن الله الذي خلقه رحيمٌ به، إذا أخطأ فتح له أبواب التوبة، وغفر له ذنوبه، حتى يحس كلُّ إنسانٍ برعاية الله سبحانه وتعالى له على الأرض، من بداية حياته عليها .

إذن فالمنهج موجود لمن يريد أن يؤمن، والتوبة قائمة لكلِّ مَنْ يخطئ، ومن رحمة الله سبحانه أنه شرع لنا التوبة؛ ليرحمنا من شراسة الأذى والمعصية كما يشير إلى ذلك الشيخ الشعراوي، وحتى لا تصبح التوبة علامةً على

التسويف، فقد حذرنا الإمام أبو حامد الغزالي في إحيائه بقوله: " فمهما وقع العبد في ذنب، فصار الذنب نقدًا، والتوبة نَسِيئةً، كان هذا من علامات الخذلان "، ولهذا ليس للعبد عند الله أمرٌ مُتيقَّن؛ لأنه قد لا يفطن إلى بعض ذنوبه التي لم يُحسِن التوبة منها، ولا التوبة عنها.

إن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وهو سيد المحتسبين في كل أعماله يعلمنا أن النفس قد تخالط صاحبها بشيءٍ يفسد الطاعة، وعلى المسلم أن يظلَّ في محل الرجاء، والمؤمن الذي يثق في ربه لا يقول: إن على الله واجبًا أن يعمل لي كذا؛ لأن أصل عبادتك لله سبق أن دفع ثمنها، وما تناله من بعد ذلك هو فضلٌ من الله عليك.

لقد ذكر الله الإصلاح بعد التوبة في قوله تعالى: ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٣٩ ﴾ (المائدة: 39)؛ لأن تَرْكَ الذنب المجرد لا يعني التوبة منه، فقد يترك السارق السرقة لغناه، ويترك الزاني الزنى لعجزه وكبره، وقد يترك الفاسق شرب الخمر لمرضه أو عجزه عن قيمته، فهذا الترك لا يُكفِّر الذنبَ، وعلامة التوبة الصادقة ترك المعصية وفعل الطاعة، ومن علامة قبولها الإتيان بالحسنة بعد السيئة .

ولا بد أن نعي ونفهم أن الله هو ربُّ العالمين، ربُّ الناس أجمعين، فكما يراعي ظروفك هو أيضًا يراعي ظروف الآخرين، ومثلما يمهلك يمهل الآخرين، ومثلما يسترك يستر الآخرين، وكما تحب أن يقبل توبتك هو يقبل توبة الآخرين، وكما تحب أن يُقِيلَ عثرتك هو يُقِيلَ عثرة الآخرين، وكما تريد أن

يقبل أعذارك هو يقبل عذر الآخرين، وكما تريد أن يستجيب دعوتك هو يستجيب دعاء الآخرين.

(21) رمضان 1440هـ

الصبر... صَمَّام أمانٍ لثبات النفس

في أكثر من مائة آية في كتاب الله تتحدث عن الصبر ومشتقاته، وفي تسعةَ عشرَ آيةً يأتي فيها فعل الأمر للرسول صلى الله عليه وسلم بأن يصبر، إلى غير ذلك من الآيات التي تتحدث عن الصبر والصابرين وعاقبة الصبر ومآلاته. وهذا إن دلَّ على شيءٍ فإنما يدلُّ على محورية الصبر في الرؤية الإسلامية، وما اقترانه بالصلاة كأهم أركان الإسلام بعد التوحيد إلا دليل مكانته وأهميته: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ (البقرة: 153)، ونظرًا لتراجع العقلية الإسلامية عن إدراك قوة الفضائل التي حثَّ عليها الإسلام، ومنها الصبر، حيث حولتها هذه العقلية إلى جانبها السلبي، من خلال الطرح الوعظي غير المتوازن الذي سار باتجاه السلبية، بعيدًا عن الإيجابية في حياة المسلم فردًا وجماعةً .

وبادئ ذي بَدْءٍ يجب أن ندرك أن ثمَّةَ أوضاعًا كثيرةً لا نستطيع أن نفعل حيالها الآن شيئًا، لكن إذا تساءلنا بمسؤولية: ماذا نستطيع أن نفعل تجاهها خلال عشر سنوات أو أكثر أو أقل؟ فسوف نرى أننا نستطيع أن نفعل أشياءَ كثيرةً جدًّا، فكأن (الصبر) في هذا النطاق استخدامٌ للوقت في الخلاص من

أوضاعٍ لا نستطيع الآن أن ننجح في الخلاص منها، ولكننا قادرون على النجاح فيها مستقبلًا.

ويظهر خُلُقُ الصبر كأداةٍ للعبور إلى مرحلة الاستقرار، وكأداةٍ للوصول إلى مرحلة النمو والازدهار، وكأداةٍ لمواصلة التفوق، إذا أصرَّ الناس على الجدِّ والابتعاد عن الثقافة الاستهلاكية السيئة، فالصبر سلاح الأسلحة في كل المراحل.

وتنمية خلق الإصرار والتحدي في النفس، يقوي (العضلات النفسية) لدى المسلم، ويجعله أكثر تحملًا للمشاق بصورةٍ واعيةٍ واثقة؛ ليصل إلى ما يرجو ويأمل، وهذا ما يمكن أن نفهمه من مقولة الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه عندما قال: " إنك لا تنال ما تريد إلا بترك ما تشتهي، ولن تبلغ ما تؤمل إلا بالصبر على ما تكره ".

وفي الآية الكريمة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣ ﴾ (البقرة: 153) تأكيدٌ على الصبر، وأنه مَعْقِدُ النصر ومَحَلُّه، فالعدد والعُدة ليست بأعظم من الصبر، فالصابر أقرب نصرًا ولو قلَّ عتاده، وإنما ذكَّر الله بالصبر، حتى لا تتعلق النفوس بالعدد الصبر

فتتكل عليها، وتنسى معيَّة الله وعونه للصابرين فيه، وبمقدار تعلُّق القلب بغير الله يضعف معه توكُّله ويقلُّ صبره، وهذا أمرٌ قد لا يملكه الإنسان، حسب تعبير الأستاذ الطريفي.

إن المدد يأتي على قدر الصبر؛ لأن حنان القدرة الإلهية على الإنسان يزداد ساعةَ يجده يتحمل المشقة فيَحِنُّ عليه ويعطيه جزاءً أكبر، فالله يريد من

عبده أن يستنفد أسباب قوته الخاصة، وحين تُستنفَد الأسباب برجولةٍ وثبات تأتيه معونة الله، ويقول الله لملائكته: هذا يستحق أن يعان فأعينوه.

وفي التربية الصبر صبران كما يؤكد على ذلك د. عبد الكريم بكار: صبرٌ سلبي، وصبرٌ إيجابي، فمعظم الناس يفهمون الصبر في جانبه السلبي، وهو الذي يعني انتظار الطفل حتى يكبر ويعقل، ويهدأ، وهذا ليس صبرًا، بل نوعًا من الإهمال، أما الصبر المطلوب فهو الصبر الإيجابي، والذي يعني تفهُّمَنا لصعوبة ترسيخ المفاهيم والأخلاق في شخصيات الأطفال وسلوكياتهم، وأن ذلك يحتاج إلى جهدٍ ومحاولةٍ وإلى زمن، وإلى صبرٍ طويل، وسعة صدر، وحِلْمٍ لا ينفد.

إن لزوم الصبر دون مراجعةٍ للأخطاء قد يجعل المصابرة نوعًا من التغطية على النتائج السيئة، واحتمال العناء دون مُبرِّر، حيث لا قيمة للصبر ورحابة الأفق والذكاء في علاج المشكلات إذا لم نتأكد أننا في المسار الصحيح.

إن النصر مع الصبر، وإن الفرج مع الكرب، وإن في رحم كلِّ ضائقةٍ أجِنَّةُ انفراجها ومفتاحُ حلها، وإن لجميع ما نعانيه من أزماتٍ حلولًا مناسبة، إذا ما توفر لها عقل المهندس، ومِبْضَعُ الجرَّاح، وحرقة الوالدة على صغيرها، ونعوذ بالله من حالات الإحباط إذا عاش المؤمن بلا موهبة صبر.

(22) رمضان 1440هـ

الغضب .. يُضعِف النفس ويُشوِّش العقل

إن الإنسان في حالة الغضب يفقد جزءًا كبيرًا من سيطرته على لسانه، فالغضب حِمْضٌ يؤذي الوعاء الذي يحويه أكثر من إيذائه لأيِّ شيءٍ سيُصَبُّ عليه، كما يقول غاندي، والغضب ريحٌ تهبُّ، فتُطفِئ سراج العقل، ولذلك فالغاضب أقرب شبهًا بالمجنون.

والجهد المبذول في (السيطرة على الغضب) أسهل بكثير من جهد الاعتذار في المستقبل ومحاولة تعديل الأوضاع ومعالجة آثار الطعنات. فإياك والغضبَ فإنه يضطرك إلى سوء الاعتذار، والإنسان يخطو نَحْوَ الشيخوخة يومًا مقابل كلِّ دقيقةٍ من الغضب، وإذا اعتاد الإنسان أن يغضب من كل ما لا يرضيه فلن يهدأ أبدًا.

وإذا غلبك الغضبُ فاغضب غضبًا مُفكِّرًا، كما يقول الأستاذ خالد محمد خالد، فالغضب المفكِّر لا ينقذف من أعصابٍ خائرة، ولا من ذمةٍ جائرة، بل يكون انفعالًا فيه حميَّة، لكن له منطق، فيه انتفاض لكن معه كابح، وفيه ذكاء كريم يدور حول الأزمة ويفسرها وسرعان ما ينتهي الغضب ويذوب، والغضب لله فضيلة، والغضب لله رجولة، والغاضب لله لا يندم على غضبه أبدًا.

ومن طبيعة الانسان أنه عندما يحبُّ يقول أجمل ما لديه، وإذا غضب يقول أسوأ ما لديه، وهذا ما نطق به الشاعر الذي مدح، فبالغ في المديح، وبعد مدةٍ هجا من مدحه، فأقذع في هجائه، فلما عاتبوه على ذلك التناقض الصارخ قال: رضيتُ فقلتُ أحسنَ ما أعلم، وغضبتُ فقلتُ أسوأ ما أعلم.

ماذا تُؤمِّلُ من قومٍ إذا غضبوا * جاروا عليك وإن أرضيتهم مالوا

وضَبْط النفس عند الغضب مهارة لا يتقنها الكثير، وأحيانًا يتحول الإنسان أثناء فَوْرَة الغضب إلى (حيوان) لا يدري ما يفعل، ولذلك كانت وصية النبي صلى الله عليه وسلم، كما في الحديث الصحيح، والتي كررها ثلاثًا للرجل الذي طلب منه أن يوصيه، فقال له : " لا تغضب "، وتغيير الحال أثناء الغضب أو الوضوء أو مغادرة المكان إحدى الطرق لتلافي ثورة الغضب، وكذلك يمكن أن تكون التمرينات الرياضية مما يعمل على تصريف طاقة الجسم والنفس فيما يفيد، وكذا تقوم التمرينات بامتصاص الغضب والتوتر، وهما العدوان اللدودان لصفاء الذهن وسكون النفس، فالقاعدة تقول: إن مَنْ ينهض بالغضب يجلس بالخسائر .

إن ما تمارسه يوميًّا " سوف تتقنه بكفاءةٍ عالية "، فعندما تمارس القلق يوميًّا، سوف تتقنه لدرجة أنك ستقلق لأتفه الأمور، وتصير (خبيرًا بالقلق) تبحث عن أدق تفاصيل حياتك بحثًا عن أسباب القلق لتقلق! وعندما تمارس الغضب يوميًّا، ستغضب وبدون سببٍ يستدعي غضبك، فمارسوا الطمأنينة؛ لتتقنوا السكينة والراحة، ومارسوا التفاؤل والأمل، ومارسوا الحب والسلام، ومارسوا الثقة وحسن الظن بالله في حياتكم؛ لتنعموا بدرجة (خبراء) في السعادة والأمان والخير وراحة البال.

(23) رمضان 1440هـ

النفس .... بين الخوف والرجاء

النفس بطبيعتها تخاف وترجو، هكذا رُكِّب في فطرتها، وعلى قَدْر ما تخاف، ونوع ما تخاف منه، وعلى قدر ما ترجو، ونوع ما ترجوه، يتخذ الإنسان لنفسه منهج حياته، ويوفق بين سلوكه وبين ما يرجو ويخاف، ودعوني أخبركم من البداية أنني أقصد بالخوف هنا حالة الحذر والحيطة (الإيجابية) لا حالة الرعب والفزع (السلبية).

إن عامل الخوف يدفع الإنسان إلى أن يأخذ حذره واحتياطاته، ويفكر في النتائج قبل أن يقدم على عملٍ ما، وهنا يكون الخوف كابحًا للنفس عن المجازفة، وبالمقابل يُشكِّلُ الرجاءُ أفقًا مفتوحًا للنفس يدعوها إلى الإقدام والمغامرة، ويُغرِيها بحلاوة النتائج، ويبقى هذان الخطان المتقابلان في النفس الإنسانية في حالة سجال، فهناك أناسٌ يحالفهم الحظُّ للتوفيق بين هذين الخطين والاستفادة من كليهما، وهناك كثيرٌ من الناس مَنْ يجنحُ إلى أحدهما، فإما أن يتوقف بدافع الخوف، وإما أن يغامر بدافع الرجاء.

وقد كان غيرُ واحدٍ من الحكماء يجعلون الخوف من صفات العقلاء، فيقولون: لا ترى العاقل إلا خائفًا، ويقصدون بذلك الخوف الذي يكون بدافع الحذر، لا الخوف الذي يكون بدافع الوسوسة والتوهم.

لا ترى العاقلَ إلا خائفًا * حَذِرًا من يومِهِ دون غدِهِ

والمؤمن حين يواجه ابتلاء الخوف، فإن عليه أن يجعل من الخوف ذريعةً لاستكمال الأسباب التي تمنع وقوع الأمر المخوف، فإن صنع ذلك يكون قد نجح في هذا الابتلاء، وحوَّل عامل الخوف إلى استثمارٍ يمنع وقوع الأمر الذي كان يخاف من وقوعه.

والله -سبحانه وتعالى -يأمر بالحذر في كتابه، وينهى عن الخوف؛ لأن الخوف يُورِث الجبن والتقهقر والفرار من العدو، وأما الحذر فيُورِث الثبات وحفظ النفس والنكاية في العدو، والحذر من توقع السوء، والتحسب له والحياطة منه، وفي القرآن الكريم يأمر الله بالحذر من الأعداء حيث يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴿٧١﴾ ﴾ (النساء: 71)، لكنه ينهى عن الخوف بقوله: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ (آل عمران: 175)؛ لأن الحذر عقل، والخوف جبن .

والخوف لا يصنع عقيدة، وإنما يُهيِّبُ النفوس فتصنع الولاء، فإذا أمِنَت انقلبت، كما يقول الأستاذ الطريفي، ولذلك لم يجعل الله الدخول في دينه بالإكراه والجبر والتخويف، بل جعل قرار الإيمان به قرارًا حرًّا يتحمل الإنسان وحده مسؤوليته: ﴿ وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقٗا ﴿٢٩﴾ ﴾ (الكهف: 29)، وهذا قمة العدل، فالتوجه إلى الله يكون رَغَبًا لا رَهَبًا .

إن عامل الخوف في النفس الإنسانية هو دافعُ حمايةٍ ووقاية، بينما عامل الرجاء دافعُ حركةٍ وإقدام، وكم جَبُنت أنفسٌ أقعدها الخوف حتى توقفت، وكم جازفت أنفسٌ دفعها حبُّ المغامرة حتى هلكت، والسعيد مَنْ أمسك بزمام نفسه، فلم يجعل الخوف بالنسبة لها قيدًا يُقعِدُها، ولم يترك لها حبل الرجاء على الغارب ليُهلِكَها.

(24) رمضان 1440هـ

النفس ... عندما ترجو الثواب وتخاف العقاب

الله تبارك وتعالى أخفى عنا الموت زمانًا ومكانًا وسببًا وعمرًا، كما يقول الشيخ الشعراوي، ولم يُخفِهَ سبحانه ليحجبه، وإنما أخفاه حتى نتوقعه في كلِّ لحظة، وهذا إعلامٌ واسعٌ بالموت حتى يسرع الناس إلى العمل الصالح، وإلى طلب الأجر والمثوبة، والحذر من الذنوب والمعاصي؛ لأنه لا يوجد عمرٌ مُتيقَّنٌ في الدنيا، فلا الصغير آمِنٌ على عمره، ولا الشابُّ آمِنٌ على عمره، ولا الكهل آمِنٌ على عمره، فالجميع تحت حكم الله، ويتوقع الخروج من هذه الدنيا في أية لحظةٍ، وفي كل لحظة.

والعقوبة حين شرعها الله لم يشرعها لتقع، وإنما شرعها؛ لتمنع الوقوع في المحذور، والشرع حين أمرنا بأن نقتصَّ من القاتل، فذلك يعني أننا نحمي سائر أفراد المجتمع من أن يوجد بينهم قاتل لا يحترم حياة الآخرين، وفي الوقت نفسه نحمي هذا الفوضوي من نفسه؛ لأنه سيفكر ألف مرة قبل أن يرتكب الجريمة.

والخاشعون لله والصادقون في عبادتهم له هم الذين يقرنون الطاعة بالثواب والمعصية بالعقاب والعذاب؛ لأن الذي ينصرف عن الطاعة لمشقتها، عَزَلَ الطاعة عن الثواب فأصبحت ثقيلة، والذي يذهب إلى المعصية عَزَلَ

المعصية عن العقاب فأصبحت سهلة. ومن تمام النعمة أن يديم الله علينا فعل مطلوبات الإيمان؛ حبًّا له، ورجاءً لثوابه، وخوفًا من عقابه.

وعندما ادعى اليهود والنصارى قربهم من الله بقولهم: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ (المائدة: 18) فإن دعوى القرب والبنوة والمحبة هذه تعتبر دعوى من دون استحقاق، وهي وَهْمُ المخلوق، وطريقٌ للتفلت من تكاليف العمل بموجب الأمر، إنها أمنٌ زائفٌ من العقاب، ورجاءٌ كاذبٌ للقرب من الله تُثبِتُ الأعمالُ عكسَه .

والبلاء من الله إما أن يكون (عقوبةً) أو (تطهيرًا) أو (اصطفاءً)، وقد تجتمع كلها أو بعضها، وكلما كان العبد أقرب طهَّره الله واصطفاه، وكلما كان عنه أبعد عاقبه، ومثل ذلك الابتلاء بالنعمة، فقد تكون إمهالًا واستدراجًا، وقد تكون زيادةً وفضلًا قائمًا على شكر الله على نعمه السابقة، وحسن استخدام الإنسان لها فيما يحبُّ ربه ويرضى.

والعقوبة الإلهية لا تنزل على الدول والجماعات والمجتمعات لوجود الفساد فيها، كما يقول الأستاذ الطريفي، فالفساد لا تخلو منه أمة، ولكن تنزل العقوبة عند انعدام المصلحين، وهي أسرع نزولًا إذا تمت محاربة هؤلاء المصلحين والتضييق عليهم، والتنكيل بهم.

والنية معتبرةٌ في انعقاد الأقوال والأعمال، وترتيب الثواب والعقاب، وكلما كانت البيِّنة في الأمر والنهي أوضح كان العقابُ على تركها أو اقترافها أشد، وكلما كان الإنسان بالله أعلم كان الذنبُ منه أعظم، والله لا يعاقب على الذنب، وإنما على العلم به وفعله، فصغيرة العالِم أعظمُ من كبيرة الجاهل كما يقول الأصوليون.

(25) رمضان 1440هـ

التوكل ... أسبابٌ تُبْذَل وثقة بالله تتأصَّل

كما نسعى لتحلية النفس بالطاعات، فيجب علينا أيضًا أن نسعى لتخليتها من المعاصي، وهو ما سماه العلماء (بالتحلية والتخلية)، ومن المعاصي النفسية التي علينا أن نسعى لتخلية النفس منها معاصٍ اعتقادية، قد تكون أخطر أثرًا من معاصي الجوارح؛ لأنها تشوِّش على النفس تصوراتها ورؤيتها، وتوقعها في مَغبَّة المعاصي، وهي تظنُّ أنها على طريق الطاعات.

فالعالم الذي نعيش فيه هو عالم الأسباب، وعدم وقوفنا على السبب في بعض الأحيان لا يعني عدم وجوده بمقدار ما يعني عدم نضجنا لإدراكه والاستحواذ عليه، والمؤمن (يَعقِلُ ويتوكل)، ويَفِرُّ من قدر الله إلى قدر الله، بصيرًا بنفسه وأدائه ومسؤوليته، فإيمانه سَعْيٌ، وسَعْيُه إيمان.

إن التوكل في أسمى معانيه هو اعتماد القلب المؤمن على الله والثقة به، والقبول بقضاء الله وقدره في كل ما يتعلق بالحياة، وما يلقاه الإنسان فيها، وما ينتهي إليه نصيبه منها، والتوكل هو إيمان القلب بقدرة الله وحكمته وعدله، ومآل كل الأمر إليه.

كما أن التوكل غير (التواكل)، فالتوكل هو ثقة المسلم وتسليمه في أمر الكليات الربانية التي لا يعلم أمرها وحكمتها ولا يسيِّر دفتها إلا الله سبحانه

وتعالى، وهو قوةٌ وطمأنينةٌ ورضًى تتخلل حياة المسلم، ويؤول به في كليات الوجود إلى النجاح والفلاح وحسن المآب.

أما التواكل فهو من العجز والتقصير والقصور فيما يتعلق بأمر الحياة ودار الشهادة ومقتضيات السعي بالسنن والنواميس التي سخرها الله للإنسان في هذه الحياة، وعلَّق بسعيه فيها مسؤوليته في خلافة الأرض وتحقيق معنى الحياة والوجود، وَفْقًا للرؤية التي طرحها أ. د عبد الحميد أبو سليمان.

ومن الإيمان بالله أخذ الإنسان بالأسباب المادية، وليس من الإيمان في شيء تَرْكُ التوكل على الله معها، فترك التوكل يُذهِب بركة النتائج ولو اكتملت الأسباب، فترك السبب (معصية)، والاعتماد المطلق على الأسباب (شرك)، والمنهج الإسلامي هو تعاملٌ مع الأسباب القائمة بما يتفق مع الشرع، وتسليمٌ لحكم الله وتدبيره مع ذلك وبعد ذلك، والمحروم مَنْ ترك العمل وقد تهيأت له أسبابه.

ومع أن الأسباب فاعلة بحكم أن سنن الله تعالى لا تتبدل ولا تتغير، فإنها محكومة في نهاية المطاف بإرادة الله التي لا مُعقِّبَ عليها، وكلُّ ما في الوجود من خلق الله، فإن مصيره إليه، والإنسان كائنٌ عابدٌ حرٌّ مسؤولٌ مستطيعٌ بفطرته، وبتلمسه لأسباب الاستطاعة في كونٍ قابلٍ لتلقى فعله فيه، كما يشير إلى ذلك أ. د. إسماعيل الفاروقي.

وفي إشارةٍ لطيفةٍ ذكرها الشيخ الشعراوي وهو يفسر قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾ (البقرة: 158) أكد

على أن السعي ظلَّ شعيرةً من شعائر الحج إلى بيت الله الحرام، استدامةً لإيمان المرء بالمُسبِّب وعدم إهماله للسبب، وحتى يُقبِلَ الإنسان على كلِّ عملٍ وهو يؤمن بالمُسبِّب، ولذلك يجب علينا أن نفرِّق بين التوكل والتواكل، فالتوكل (عَمَلُ قلب) يحرك عَمَلَ جوارح، والتواكل (تعطيلٌ لعمل جوارح)، وليس في الإسلام تواكل، إنما الجوارح تعمل والقلوب تتوكل، هكذا كان توكل هاجر، لقد عملت وتوكلت على الله فرزقها الله بما تريد بأهون الأسباب، وهي ضربة قدم الوليد الصغير للأرض .

إن التفكر في بديع صنع الله لا يغني عن العمل؛ لأن الله سبحانه يريد من الإنسان أن يتفكر فيه وهو يعمل في أسبابه، فأسباب الله لا تشغله عنه سبحانه، ومِنْ هنا كان التوكل والتفويض إلى الله سببًا في " قوة نفسية للمؤمنين، بل وعنوانًا من عناوين الإيمان واليقين "، كما يقول الأستاذ محمد الراشد.

ويمكننا أن نفهم من قوله تعالى: ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ﴾ (الفاتحة: 5) أن (استعان) معناها: طَلَبَ المعونة، أي أن الانسان استنفد أسبابه، ولكنها خذلته، أو كانت غير كافية، حينئذٍ لا بد أن يتذكر أن له ربًّا لا يُعبَد سواه، لن يتخلى عنه، بل يستعين به، فحين تتخلى الأسباب فهناك ربُّ الأسباب، وهو موجود دائمًا، لا يغفل عن شيء، ولا تفوته همسة في الكون.

والإنسان إذا ما أقبل على أمرٍ يجبُ أن يُعِدَّ له إعدادًا تامًّا؛ قيامًا بالأسباب البشرية، حتى إذا ما استوفى إعداده لكل الأسباب لجأ إلى معونة الله؛ " لأن الأسباب هي من يد الله، فلا ترد أنت يد الله بأسبابها؛ لتطلب معونة الله بذاته، بل خُذِ الأسباب أولًا؛ لأنها من يد ربك سبحانه "، الشيخ الشعراوي.

وللنجاح والفلاح والنصر أسبابٌ، بعضها شرعي وبعضها كوني، فإذا قوِيت الأسباب الشرعية، عوَّض الله بها ضعف الأسباب الكونية، ولكن لا تغني الأسباب الشرعية -ولو اجتمعت -عن الأسباب الكونية إذا انتفت، فإن حدوث الحوادث في الكون بلا أسبابها يقدح في إحكام الكون، فلا يُقدِّر الحوادث بلا سبب إلا موجدها بعد العدم، وهو الله، أما الإنسان فهو مطالبٌ ببذل السبب والتوكل على المُسبِّب.

لكن الذي لا خلاف فيه كما يقول الأستاذ الطريفي هو أن الله لا ينصر أحدًا ولو كان نبيًّا من أنبيائه إلا بسببٍ كوني ولو كان يسيرًا، وهذا مقتضى إحكام الكون، وعدم عشوائيته، ودورانه في فلكٍ سببيٍّ دقيقٍ لا يخرجُ عنه، ولهذا لم يَفْلِقِ الله لموسى البحر إلا بضرب العصا، والله قادرٌ على فَلْقِه بلا عصا، ولم يُسقِطِ اللهُ التمرَ على مريمَ إلا بهزِّ جذع النخلة، وهو قادرٌ على أن يُدنِيهَ بلا هزٍّ، وسدَّدَ اللهُ رميَ النبي صلى الله عليه وسلم فلم يخطئ : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ (الأنفال: 17)، والله قادرٌ على هزيمتهم بلا رمي، ولكن الأسباب لا بُدَّ من وجودها، وربما تدِقُّ جدًّا حتى يظنُّ الإنسان في الدنيا أن لا وجود لها في حادثةٍ بعينها، وهي موجودة، ولكنها خفية.

(26) رمضان 1440هـ

القلق ... داءُ النفسِ والطمأنينة دواؤها

بادئ ذي بَدْء علينا أن نحذر كلَّ الحذر من الأفكار والمفاهيم والتصورات الخاطئة واليائسة والمُحبِطة والمشوهة، فهي قادرة دائمًا على جعل مشاعرنا تتجه الوجهة الخاطئة، أو تكون سوداويةً تعكر حياتنا، وتسلبنا الطمأنينة والهناء.

وقد يكون ذلك بعضًا مما تشير إليه الآية الكريمة: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ ﴾ (الكهف: 54)، فقد نستوحي من هذه الآية الكريمة أن صفة (الجَدَل) من الصفات اللازمة للإنسان في طبيعة خلقه وتكوينه، تمامًا كبقية الصفات الفطرية، التي تميزه عن سائر المخلوقات، فقد فطر الإنسان على أن يواجه الحياة بكلِّ ما فيها من أوضاعٍ وأحداثٍ وملابساتٍ وأفكار بعقليةٍ منفتحةٍ قلقة، لا تستقرُّ على حال، فتراه يُفتِّشُ عن الشيء وضده، وعن الحق والباطل، ليجادل في هذا، ويحاور في ذاك، فلا يتيقن إلا ليتململ في رحلةٍ جديدة نحو الشك، ولا يشكُّ إلا ليبدأ رحلته الطويلة نحو اليقين كما يشير إلى ذلك د . محمد حسين فضل الله.

والأمن والطمأنينة من المطالب الأساسية، ليس للحياة الهانئة فحسب، وإنما للنمو السوي للشخصية أيضًا، وإن شيئًا من التذمر ضروريٌّ جدًّا لتوازن الشخصية، واستقامة الحياة العامة، والتذمر من هذه الناحية يُشبِه القلق، قليله نافع، وكثيره ضار، كما يقول د. عبد الكريم بكار.

وعاطفة القلق مثلًا وظيفتها أن تدفع الإنسان إذا وقع في مشكلةٍ إلى أن يبحث لها عن حل، فالسعادة تنبعُ من الداخل، أما الشعور بالرضا فإن مصدره المقارنة مع الآخرين. كما أن تشخيص المشكلات ونحن في حالة خوفٍ أو قلق يجعلنا نراها أكبر من حقيقتها.

والقلق لا يجرد المستقبل من مآسيه، لكنه يجرد الحاضر من أفراحه، فالمتشائم عندما يستشرف المستقبل فإن رِجْله تعرُجُ من شوكةِ الغد، وصدره يَسعُل من برد الأسبوع القادم! أ. د. فؤاد البنا

سَهِرَت أعيُنٌ ونامت عيونٌ * في أمورٍ تكونُ أو لا تكون

إن ربًّا كفاكَ ما قد كان * سيَكفِيكَ في غَدٍ ما يكون

إنه الرضا القائم على بذل الأسباب واستفراغ الجهد، ثم التوكل على الحي الذي لا يموت، ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾ (الفرقان: 58) بعيدًا عن القلق المَرَضِي الذي يُقعِد الإنسان ويستهلك طاقته .

وأخيرًا فهذه عبارةٌ أوردناها في وقفةٍ سابقة نرى أن لها علاقةً بوقفة اليوم، وهي أن ما تمارسه يوميًّا " سوف تتقنه بكفاءةٍ عالية، فعندما تمارس القلق يوميًّا " سوف تُتقِنُه إلى درجة أنك ستقلق لأتفه الأمور، وتصير (خبيرًا

بالقلق) تبحث عن أدق تفاصيل حياتك بحثًا عن أسباب القلق لتقلق! وعندما تمارس الغضب يوميًّا ستغضب وبدون سببٍ يستدعي غضبك، فمارسوا الطمأنينة؛ لتتقنوا السكينة والراحة، ومارسوا التفاؤل والأمل، مارسوا الحب والسلام، مارسوا الثقة وحسن الظن بالله في حياتكم؛ لتنعموا بدرجة (خبراء) بالسعادة والأمان والخير وراحة البال.

(27) رمضان 1440هـ

الهوى يقود النفس إلى مهاوي الردى

الإنسان مالم ينفذ لجوهر الدين، وما لم تَسْتَبِن له قيم الدين استبانةً لا غموض فيها ولا التواء، ومالم تنعقد نفسه على قناعةٍ كاملةٍ بها، فإن طقوس الدين وأشكاله وألفاظه لا تُشبِعُ روحه، ولا تنمي فيه نازعات الخير، أو تردع فيه جانحات الشر، وسيستبدُّ به الهوى الشخصي والمنفعة الذاتية القريبة، كما يشير إلى ذلك د. التيجاني عبد القادر، وسوف تكون فكرة الغيب أو الخير العام مجرد ألفاظٍ تخفي تحتها صراع المصالح.

والهوى يعتبر نوعًا من الاختيار المسبق، الحب والبغض المسبق، لا يستجيب صاحبه للحقيقة ولا لمنطق العقل، ويستعلي على قبول الحق، وهو لا يرى للآخر قولًا ولا حقًّا ولا فضلًا، إنه تضخُّمٌ للذات ونظرةٌ دونية للغير، والموضوعية تقتضي، بل وتقوم على ركنين أساسيين: البُعد عن الظن، والبُعد عن الهوى. والنفس عندما تميل إلى قولٍ تقوم بالتقاط مُؤيِّداتٍ له من الدلائل والقرائن حتى تثقل كفته، ولو مالت إلى غيره لفعلت مثل ذلك، تدور في فلك الهوى ولا تشعر.

إن أخطر أنواع العبودية عبودية الهوى، حيث يتحرر الإنسان من عبودية (الأحجار) إلى عبودية (الأفكار)، فيظنُّ أنه لا يطوف حول صنم، وهو يطوف حول هواه ولا يراه، وإذا تحكَّم الهوى بالرأي هوى، كما يقول الأستاذ

الطريفي، ﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾ (طه: 16) .

وفي تشبيهٍ جميل أورده د. أحمد كنعان عن السلوك البشري الذي يختلف عن سلوك بقية المخلوقات الحية، التي تتصرف عادةً بدافعٍ من غرائزها الفطرية، دون وعي ولا قدرة على الاختيار بين البدائل الكثيرة المحتملة، فقد شبَّهَ سلوك الحيوان بسلوك القطار الذي لا يستطيع الخروج عن مساره، أما الإنسان فهو أشبه براكب السيارة الذي يستطيع أن يتحرك بحريةٍ أكبر بين طرفي الطريق، ومأزق الإنسان أنه كثيرًا ما يستبدُّ به الهوى، فيشتطُّ، ويجمح، ويحاول الخروج عن الطريق، مُعرِّضًا نفسه وبني جنسه لشتى أنواع المخاطر.

وفي قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (الجاثية: 23) تقريرٌ لقاعدةٍ ثابتة، وهي أن العلم لا يؤدي إلى الهداية دائمًا، لا سيما إذا (سيطر الهوى) عليه، والعلم لن يؤدي اليوم بصورةٍ مؤكدة، ولا مطلقة إلى سيادة السلام والتقدم - كما يتوهم بعضهم - ؛ لأن النزعة التجارية والعنصرية للعلم تجهض فاعليته في هذا الاتجاه. حسب وصف الدكتور عبد الكريم بكار، فعلى أرض الجهل ينبت الغلو، وعلى أرض الهوى ينبت الإرجاء، وعلى أرض العلم والتجرد ينبت ويثبت التوسط.

نعم ﴿ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾، فعندما سيطر الهوى ضاع العقل، وبضياع العقل انهار العلم، فهي ليست شهادةً ضدَّ العلم، بل شهادة للوجهة التي يمكن أن يُوجِّهَ بها الإنسان اتجاه العلم، فإما أن تكون هذه الوجهة مما يرفع الإنسان (درجات) ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ (المجادلة: 11)، أو يحوّله إلى مجرد حيوان ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ (الأعراف: 176) .

(28) رمضان 1440هـ

النفس بين موازين الدنيا وموازين الآخرة (1-2)

في عبارةٍ عجيبةٍ وغريبة، وربما صادمة للبعض منا، قالها أبو الوفاء ابن عقيل، ولم يجانب فيها الصواب، فقد قال: " مَنْ ادَّعَى أنه لا يحبُّ الدنيا، فهو عندي كذاب، إلى أن يثبت صدقه، فإن ثبت صدقه ثبت جنونه "، ووَفْقًا لهذه المقولة فإن من يدَّعي عدم حبه للدنيا، فإما أن يكون كذابًا أو مجنونًا، وهاتان الصفتان لا يرضاهما الإنسان السويُّ لنفسه، والحبُّ الفطري للدنيا طبيعة للنفس الإنسانية مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ ﴾ (الفجر: 20)، وقوله أيضًا: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾ (العاديات: 8)، والفارق بين حبٍّ وحبٍّ لهذه الدنيا، هي ألا تكون الدنيا غايةً بل وسيلة، وألا يتأصَّل حبها في القلب، فتصبح أكبر همِّ الإنسان ومبلغ علمه، والزهد الحق في الدنيا هو خُلُوُّ القلب من محبة الدنيا لا خُلُوُّ اليد عنها .

إن الإنسان في نظر الإسلام ليس شقين منفصلين: شقًّا أرضيًّا يعمل، وشقًّا سماويًّا يتعبد، وإنما العبادة عمل، والعمل عبادة، والإنسان بشقَيْه شيءٌ واحد؛ لأنه منذ مولده الأول قبضة من (طين) الأرض ونفخة من (روح) الله ممتزجين غير منفصلين، ومِنْ ثَمَّ فليس شيءٌ في كيانه منفصلًا عن بقية الكيان، الروح والعقل والجسم كيانٌ واحد، والعمل والعبادة كيانٌ واحد،

والدنيا والآخرة كيانٌ واحد، وكلُّ عملٍ يقوم بها الإنسان صادرٌ عن كيانه كله، وكلُّ لحظةٍ من حياته هي للدنيا والآخرة في آن.

وبهذا تصبح الآخرة هي اكتمال الحياة الدنيا، ولا تصبح شيئًا مخالفًا لها في طبيعتها، مُنقطِعَ الصلة بها، ويحسُّ الإنسان بنفسه أنه (هو ذاته) هنا وهناك، وأن الذي سيتلقى النعيم أو يذوق العذاب ليس شخصًا آخرَ مُنقطِعًا ومُختلِفًا عنه، وإنما هو ذاته في صورته النهائية التي تطوَّر إليها نتيجة مسلكه في أثناء تجربة الحياة الدنيا.

إن الدنيا ليست مملكة الجسم، والآخرة مملكة الروح، بل هما مملكة الجسم والروح في آنٍ واحد، وهي رحلة واحدة أولها في الدنيا، ونهايتها في الآخرة بلا انفصال، والإنسان يقطعها من أولها إلى آخرها وهو بذاته الإنسان، وَفْقَ ما أورده الأستاذ محمد قطب في كتابه الموسوم بـ (دراسات في النفس الإنسانية).

وحين لا يعود الدين اختيارًا واعيًا، بل عبئًا اجتماعيًّا، وتقليدًا محضًا، عندها لا تترابط فيه حلقات الدنيا بحلقات الآخرة، وبالتالي -وبما أنه في مخيلته عملٌ من أعمال الدنيا، وليس له ارتباطٌ بالآخرة -فلن يُعدَمَ الإنسان حيلةً معه، وما أكثر الحيل التي تمليها النفس على الإنسان، لتُحِلَّ له ما حرَّم الله، وتحرِّم عليه ما أحلَّ الله.

والحياة الدنيا هي مرحلة (قوة) بين قوسين من (الضعف)، القوس الأول هو أن الله خلقنا وأوجدنا (الضعف الأول)، ثم تمضي بنا رحلة الحياة (مرحلة القوة) إلى القوس الثاني، الذي تخمد فيه بشريتنا وتتوقف حياتنا، وهو الموت (الضعف الثاني)، أي أننا في رحلة الحياة من الله وإليه، إذن فحركة الحياة

الدنيا هي بداية من الله بالولادة ونهاية بالموت، يقول المولى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾ (الروم: 54)، إذن فالدنيا تُقاس بعمر الإنسان فيها لا بعمر ذات الدنيا لغيره؛ لأن عمره يخصُّه هو وحده.

إن الإيمان والعبادة أمران عظيمان، ولكنهما في صناعة الحياة جزءٌ من المعادلة، فمن أراد الحسنيين: الدنيا والآخرة، فيجب أن يكمل شروط عمل الدنيا، وهو شِقُّ ﴿ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ (البقرة: 82) التي بها تنمو حياة البشر، فمعادلة القرآن تشير إلى بُعْد السماء: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ (البقرة: 3)، وإلى بُعْد الأرض ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ ﴾ (البقرة: 3) كما يقول د . جاسم سلطان.

والنصر الحقيقي الذي افتتحت به الحضارة الإسلامية انطلاقتها، كان على مستوى النفوس، بتحريرها من حبِّ الدنيا، ومن الطموحات الصغيرة، كما كان على مستوى العقول بتحريكها وتشغيلها، وفك إسارها من أغلال الخرافة والوهم والتقليد، د. عبد الكريم بكار.

ومن سمات نظرة الإسلام للإنسان التوازن والاعتدال، فلا يطغى الاهتمام بشؤون الآخرة على إعمار الأرض وتلبية متطلبات العيش السوي، كما لا يطغى الاهتمام بالدنيا على القيام بما يتطلبه الفوز بالآخرة ... وللحديث بقية.

(29) رمضان 1440هـ
النفس بين موازين الدنيا وموازين الآخرة (2-2)

كلُّ مَنْ لاقيتُ يشكو دهرَهُ * ليتَ شعري هذه الدنيا لِمَنْ؟ !

هذه الدنيا -ولو كانت قليلة -تحجبُ الإنسان عن رؤية الآخرة، كما أشرنا في وقفةٍ سابقة، فالدينار من الذهب لو قرَّبَتْهُ العينُ منها لم تَرَ جبل الذهب، فالدنيا ليست بحجمها، وإنما بقربها، فمن انتفع بها وأبعدها لم تضره، ولو كانت كثيرة، ومن قرَّبها أعمته، ولو كانت قليلة.

إذا اختبر الدنيا لبيبٌ تكشَّفَت * له عن عدوٍّ في ثيابِ صديق

والأصل أن النفس إن امتلأت من الدنيا امتلاءً تامًّا فلن يَبْقَ للدين والآخرة منها شيء، وقد جعل الله فيها لكلِّ واحدٍ نصيبًا، والأصل أن يكون نصيب الدين والآخرة هو الأكبر. وما دمنا نحن وما نملك شيئًا عابرًا في هذه الدنيا فإن " ما يستحق الغبطة فعلًا هو ما يذهبُ معنا، وليس ما يبقى هنا، وهو شيءٌ وحيدٌ لا أشياء، إنه باختصار (العمل الصالح) "، د. عبد الكريم بكار.

ومن شرف الدنيا ومن فضلها أن بها تُستدرَك الآخرة كما أنها ليست ميزانًا للحق فقد يخسرها الإنسان وهو على حق، وقد يكسبها وهو على باطل؛ لأن الحقَّ مكسبٌ في حدِّ ذاته فوق الماديات. ولهذا قال بعضهم: إن الله سبحانه وتعالى ضَمِنَ لنا الدنيا وطلب منا الآخرة، فليته ضَمِنَ لنا الآخرة وطلب منا

الدنيا. ولا يصحُّ أيضًا أن ننسى أن كلَّ المكاسب والخسائر في هذه الدنيا مؤقتة وزائلة هي وأصحابها، إنها الدنيا فلا تحفل بها (مَدٌّ) و(جَزْر).

ولعلَّ معالجة الإسلام لمشكلة المال كواحدة من أهم ركائز هذه الحياة الدنيا، وَفْقًا لما ذكره المفكر الفلسطيني د. منير شفيق، تعطي صورةً على الوحدة التي تحمل داخلها حركةً لا سكونًا، وحالةً مركبةً من جوانب عديدة، تقوم العلائق بينها ضمن توازنٍ دقيق لا ضمن (مساواتية) تبسيطية، فالمال من جهة (فتنة)، وهو من جهةٍ أخرى (زينة) الحياة الدنيا، وقُدِّرَ لكثيرٍ من الناس أن يُحِبُّوه حبًّا جمًّا، وهو من جهة (رزقٌ) من الله، ومن جهة لا يغني عن الإنسان شيئًا، ويشلُّ اليد التي تكنزه، ويقطع اليد التي تسرقه، ويُهلِكُ النفس التي تُقتِّر فيه، ويتركها ملومةً محسورة حين تبذر فيه، وهو أيضا يُورَّث للبنين لينعموا به، ويُعطَى زكاةً يُتقرَّب بها إلى الله، وهو من حطام الدنيا، ولا يليق بالمؤمن أن يقع في أسره وحبه، إلى ما هنالك من حالات. وهنا يطرح السؤال نفسه، كيف تقام (المعادلة السليمة) التي تجمع كل هذه، فلا تفهم إحداها إلا ضمن هذا المجموع؟ ثم كيف تقام تلك المعادلة بين مختلف الجوانب التي عُولِج بها موضوع المال حين توضع في إطار الإسلام ككل؟

إن منازل الدنيا لا تُقطَع بالكلام، فكيف يُقطَع طريق الآخرة بالكلام، فإذا فقدت مكان البذور التي بذرتها يومًا ما، فسيخبرك المطر أين زرعتها، لذا أبذر الخير فوق أيِّ أرضٍ، وتحت أيِّ سماء، ومع أيِّ شخص، فأنت لا تعلم أين تجده، ومتى تجده؟ !

ازرع جميلًا ولو في غير مَوضعِهِ * فلن يَضِيعَ جميلٌ أينما زُرِعا

فما أجمل العطاء! فقد تجد جزاءه في الدنيا، أو يكون لك ذخرًا في الآخرة، لا تسرق فرحة أحد، ولا تقهر قلب أحد، أعمارنا قصيرة، والبصمة الجميلة تبقى وإن غاب صاحبها.

(30) رمضان 1440هـ

﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾

خلال تسعةٍ وعشرين وقفةً قضيناها خلال أيام هذا الشهر الكريم، تحت عنوان ﴿ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ٩ ﴾ (الشمس: 9) حاولنا فيها أن نتعرف على طبيعة النفس الإنسانية، وما الذي يزكيها ؟ وما الذي يدسِّيها؟ وكيف نحاول الارتقاء بها (تَخْلَيةً وتَحْلَية)؟ لنصل بها إلى التزكية المستطاعة، وستكون هذه الوقفة الأخيرة عبارة عن تأملات حول قوله تعالى: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١ ﴾ (الذاريات: 21) من خلال عشر إضاءات نسوقها كالتالي:

1 -القرآن الكريم يُوجِّه الإنسان إلى أقرب شيءٍ إليه وهي نفسه؛ لكي يتأمل فيها مليًّا، وسيجد أن فيها ما يستحق التوقف، فالله لا يوجهنا للنظر والتأمل في شيءٍ إلا لأهميته ومكانته، وما يُحدِثه ذلك من مردودٍ على الإنسان بشكلٍ عام.

2 -الدعوة القرآنية للإنسان بالنظر في نفسه تشير إلى أن النفس الإنسانية لا يمكن التعرُّف عليها ببساطةٍ وبصورةٍ سطحية، وأن الإنسان مُطالَبٌ بنوعٍ من التركيز العميق، والنظر إلى ما وراء الظاهر من النواحي النفسية.

3 -التوجيه القرآني للإنسان في هذه الآية يشير إلى أن هناك تأكيدًا للإنسان على النظر في نفسه، والتعرف عليها بشكلٍ واضحٍ وشفاف؛ لمعرفة عيوبها، ثم السعي إلى إصلاح هذه العيوب، فمن لم يصل إلى التشخيص الدقيق فلن يعرف العلاج الشافي.

4 -الآية القرآنية تدعو المسلمين إلى ما هو أبعد من التأمل الفردي، وذلك بإقامة علم نفس إسلامي، يكون القرآن الكريم وصحيح السنة منطلقه، إضافةً إلى ما يمكن أن يقدمه علماء النفس المسلمين من خلال دراساتهم وأبحاثهم حول النفس الإنسانية، مع الاستفادة من جهد الآخرين في إطار ثوابت الدين الحنيف، وسينعكس هذا في مجمله على مجالات التربية والثقافة والإعلام والاجتماع في حياة المسلمين.

5 -يمكن أن يُفهَم من قوله تعالى: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡ ﴾ أن الأمر يشمل جميع النواحي الجسمية والروحية والعاطفية التي لها علاقة بكيان الانسان، وفي هذا ما فيه من دعوةٍ إلى الاهتمام بالإنسان ككل، ودراسته من جميع النواحي، وعدم الاقتصار على جانبٍ دون آخر، وأن الإنسان هو إنسان بكيانه كله، وبجميع جوانبه، وأن تفاعُل هذه الجوانب مع بعضها هو ما ينتج شخصية الإنسان، فإذا كانت سويةً كان الإنسان سويًّا، وإذا حدث فيها أو في بعضها خَلَلٌ فإن هذا الخلل يؤثر في الشخصية بمقدار الخلل الحاصل .

6 -عندما يحثنا الله على التعرف عليه، يسوق لنا الأدلة القريبة منا، واللصيقة بحياتنا، وهي أنفسنا ذاتها؛ لننظر إليها بتمعُّن، وعندها سنرى إبداع الخالق العظيم، وجلال حكمته وعلمه، فيزداد له القلب حبًّا، ويزداد له

العقل إجلالًا وتعظيمًا، وتزداد له النفس محبةً وشوقًا، ويخضع له الجسد عبادةً وتضرعًا.

7 -الإرشاد القرآني للإنسان بقوله تعالى: ﴿ تُبۡصِرُونَ ﴾ رغم أنه يتجه إلى حاسة البصر التي تمثله العين، إلا أن أبعاد هذا اللفظ (تبصرون) يتعدى ذلك إلى استخدام ملكات وحواس أخرى للتعرف على الإنسان برؤيةٍ أكثر، وشموليةٍ أتم، وفي هذا إشارة إلى تكامل العلوم وأهمية تعرفها على الإنسان بشكلٍ متكامل ليس من خلال علمٍ واحد، أو ملكةٍ واحدة، أو حاسةٍ واحدة، بل من خلال هذه كلها مجتمعةً، فهي في مجموعها يمكن أن تعطى صورةً متكاملةً لهذا الإنسان.

8 -تشير الآية إلى المكانة التي يحتلها الإنسان في الرؤية الإسلامية، فهو المكرَّم من ربه، وهو الخليفة في أرضه سبحانه، والدعوة القرآنية إلى النظر فيه دليلٌ على أنه عالَمٌ قائمٌ بذاته، يستحق مثل هذا التكريم، وهو أهلٌ لهذا الاستخلاف، وأن التأمل فيه تأملٌ في كونٍ متكامل.

وتحسبُ أنك جُرْمٌ صغيرٌ * وفيك انطوى العالمُ الأكبرُ

9 -سيبقى الإنسان هو أعجب عجائب الله في هذا الكون، وأكثر مخلوقات الله سبحانه وتعالى تشابكًا وتداخلًا وتعقيدًا، وأن النظرات السطحية للإنسان، ومحاولة تفسيره تفسيرًا منحازًا لأحد جوانبه، هي نظراتٌ قاصرة، لا تسعى للرقي بالإنسان، بل تسعى إلى تحويله إلى كائنٍ آخر (حيوان، شيطان، ملاك)، وعندها لا يمكن أن تنطبق عليه صفة الإنسان ومسماه.

10 -التوجيه القرآني، كما يحث الفرد للنظر في نفسه، يحث المجتمع أيضًا مُمثَّلًا بمؤسساته العلمية والبحثية إلى دراسة الإنسان دراسةً مستفيضة

متعمقة، لا يقنع من خلالها بالقليل مما يجد، فهناك الكثير مما لم نكتشفه في الإنسان (ذلك المجهول)، وأن ما تم اكتشافه في الإنسان ليس إلا (رأس جبل الجليد)، وكلما تقدمنا في دراسة الإنسان كلما استطعنا أن نكتشف جوانب القوة والإعجاز فيه، فنسعى لتنميتها، وبالمقابل نكتشف جوانب الانحراف والتسفُّل فنسعى لتحجيمها.

أسأل الله أن يزكي نفوسنا، وأن يبصِّرَنا بعيوبنا، وأن يعيننا على التخلص من هذه العيوب. كما أسأله سبحانه أن أكون قد وُفِّقتُ من خلال هذه الوقفات إلى إبراز مكانة النفس في حياة الإنسان، ولو كان الحمل ثقيلًا والبضاعة مزجاة، لكن الذي شجعني على المواصلة أملي في كون المشترين كرماء ولا يردون البضاعة، وهذا ما لمسته خلال هذه التأملات الرمضانية من قبل القراء الأكارم، تقبل الله منا ومنكم صالح الأعمال. ووفقنا الله جميعًا لما يحبُّ ويرضى. وكلُّ عامٍ وأنتم ومَنْ تحبون ووطننا الحبيب بألف خير.

نبذة تعريفية بالمؤلف

السيرة الذاتية:

المعلومات الشخصية:

الاسم: دكتور / يحيى أحمد حسين المرهبي .

محل وتاريخ الميلاد: حجة 5 / 2 / 1973م .

الحالة الاجتماعية: متزوج وأب لسبع بنات وثلاثة أولاد .

محل الإقامة: الجمهورية اليمنية / محافظة عمران - مدينة عمران - حارة النهضة السكنية ـ شارع 22مايو .

رقم الموبايل: 00967774155602

البريد الإلكتروني: almerhbi2010@gmail.com

المؤهلات العلمية:

1- (**2016م**) دكتوراه فلسفة التربية قسم أصول التربية (سياسات تربوية) / جامعة الدكتور / بابا صاحب امبيدكار/ مهارا اشترا / أورانج أباد / جمهورية الهند .

2 - (**2008م**) ماجستير أصول تربية من جامعة صنعاء - كلية التربية بتقدير عام: 82,5 % جيد جدًّا .

3 - (**2004م**) تمهيدي ماجستير أصول تربية من جامعة صنعاء - كلية التربية بتقدير عام: 82,66 % جيد جدًّا .

4 - (**98 / 99**) بكالوريوس تربية إسلامية من كلية التربية بعمران - جامعة صنعاء بتقدير عام جيد .

5 - (91 / 92) دبلوم معلمين ثلاث سنوات معهد معلمي عمران بتقدير جيد جدًّا.

خبرات التدريس:

1 - عمل مدرسًا لمدة عام في مجال التربية والتعليم في العام 91 / 92 م .

2 - درَّس مقرر (أصول التربية) لطلبة كلية التربية والألسن المستوى الثالث للعام 2008 / 2009 م وما بعده، للأقسام: كيمياء، فيزياء، انجليزي تربية، القرآن الكريم وعلومه، اللغة العربية، الجغرافيا، التاريخ .

3 - درَّس مقرر (أساليب تدريس 2) للأقسام: جغرافيا، تاريخ، دراسات إسلامية .

4 - درَّس مقرر (الثقافة الإسلامية) في عددٍ من الكليات الخاصة .

5 - درَّس مقرر (مهارات الاتصال) في عددٍ من المعاهد والكليات الخاصة .

6 - درَّس مقرر (أساسيات البحث العلمي) في عددٍ من المعاهد والكليات الخاصة .

خبرات الكمبيوتر واللغة:

1 - رخصة قيادة الحاسوب من جامعة صنعاء عام 2008م .

2 - شهادة من مركز الحاسوب وتقنية المعلومات جامعة عمران بمشاركته بدورة الانترنت ومحركات البحث خلال الفترة من 30 / 10 إلى : 10 / 11 / 2011م .

3 - شهادة من كلية اللغات بجامعة صنعاء بحصوله على تقدير جيد جدًّا في اللغة الإنجليزية .

4 - شهادة من المعهد الأمريكي بصنعاء بحصوله على تقدير جيد جدًّا في اللغة الإنجليزية .

5 - يجيد اللغة العربية الفصحى كتابةً ومخاطبةً وقراءة .

ورش العمل التي شارك فيها:

1 - شارك في ورشة العمل التي أقامها مركز الإرشاد التربوي والنفسي (جامعة صنعاء) حول كيفية تصميم البحوث العلمية في العلوم الإنسانية للعام 2007م .

2 - شارك في ورشتَيْ عملٍ أقامتهما جامعة بابا صاحب - كلية التربية بجمهورية الهند خلال العام 2016م .

3 - شارك وحضر كورس مناهج البحث وطرق الإحصاء ببرنامج الدكتوراه بجمهورية الهند لمدة شهر خلال العام 2013م .

4 - حضور ورشتَيْ عمل بجامعة صنعاء للعامين (2010)، (2011م)، حول القبول والتسجيل .

5 - المشاركة في ورشة عملٍ أقامتها كلية التربية والألسن بعمران حول توصيف المقررات خلال العام 2010م .

المؤتمرات العلمية التي حضرها:

- حضر ثلاثة مؤتمرات علمية أثناء تحضيره لدرجة الدكتوراه بجمهورية الهند خلال الأعوام 2013، 2016، 2017م .

الإنتاج العلمي:

1 - رسالة دكتوراه بعنوان **(دراسة واقع تربية المواطنة في المدارس الثانوية في العاصمة صنعاء) .**

2 - رسالة ماجستير بعنوان **(العوامل المؤثرة على قيم المواطنة لدى طلبة المرحلة الثانوية بمحافظة عمران) .**

3 - لديه ثلاثة أبحاث منشورة باللغة الإنجليزية في مجلات محكمة في جمهورية الهند:

(أ) البحث الأول بعنوان: " **مسؤولية المؤسسات الاجتماعية في بناء قيم المواطنة لدى طلابها** "، (2013م) .

(ب) البحث الثاني بعنوان: " **دور الأسرة والمدرسة في تطوير قيم المواطنة لدى أبنائها التلاميذ** "، (2013م)

(ج) البحث الثالث بعنوان: " **آليات تفعيل قيم المواطنة لدى طلبة المرحلة الثانوية في الجمهورية اليمنية** "، (2016م) .

(د) كتاب بعنوان **(على بصيرة ... تأملات في الدين والحياة)**، (2019م) .

ولديه أبحاثٌ وكتبٌ لم تُنشَر هي:

1 - بحث بعنوان **(الفروض الكفائية سبيل التنمية المستدامة)** .

2 - بحث بعنوان **(مدى وعي طلبة المرحلة الثانوية في الجمهورية اليمنية بقِيَم المواطنة)** .

3 - بحث بعنوان **(بناء ثقافة السِّلْم لدى طلبة المرحلة الأساسية بأمانة العاصمة صنعاء)** .

4 - كتاب بعنوان **(ثقافة بناء الأفراد والأمم)** .

كما أن لديه بعض المشاريع لدراسات وأبحاث وكتب لم يستكمل إخراجها، وتحتاج إلى وقت .